

تندلع الثورة فقط في غياب أي مخرج آخر

تروتسكي

ارتبط تاريخ الحضارة البشرية على هذه الأرض بتاريخ بحث الإنسان عن حياة أفضل عبر الصراع ضد كل القوى الطبيعية والبشرية التي تفهره وتستغله وتقيد حرياته. ومع تطور البنى الاجتماعية والسياسية صار هذا الصراع يأخذ أشكالاً جماعية ضد الظلم الاجتماعي والقمع السياسي. ويحفل التراث الإنساني بقصص الثورات والانتفاضات وحركات العصيان والكتابات التي رافقته على مدى العصور ومع ذلك فما زال هناك سؤال كبير يعاد طرحه على الدوام وهو "ما الذي يدفع المجتمع إلى الثورة؟"

ثمة أرضية مشتركة في البحوث التي قاربت تعريف الثورات وتحليلها ودراستها في العصر الحديث وهي أن الثورة نتاج الإرادة بقدر ما هي نتاج الحاجة، أي : أن الحاجة والإرادة السياسية تشكلان معاً قوة اجتماعية تأخذ زمام المبادرة في انطلاق الثورة ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، هناك ثمة خلافات كثيرة بين المفكرين في تعريف الثورة ومقاربتها مفهومها بالتحليل والدراسة تاريخياً. والآن مع تصاعد الحراك الشعبي في العالم العربي من المحيط إلى الخليج، وتحولاته وتنافضاته ومفاجآته يحند الجدل ويشد الخلاف حول تعريف الثورة وتحديد ماهيتها وطبيعتها في ضوء التفاوت الهائل الذي يمكن تتبعه في تعريف وشرح ما جرى ويجري في عدة بلدان عربية أثناء الحراك وبعده.

ويختلف الدارسون والباحثون في رؤاهم حول تقييم ما جرى في مصر وتونس وليبيا، بين من يؤكد نجاح ثوراتها وبين من يرى أنها فشلت أو تم الإلتفاف عليها واختطافها إلى آخر ما هنالك من رؤى وآراء. ويبدو هذا الخلاف على أشده حين يتعلق الأمر بما يحدث في سورية، وهي موضوع دراستنا هذه، حيث يتسع مدار الشك بأنه ما زال من الممكن تعريف ما يجري على أنه ثورة أو انتفاضة أو حراك بعد مضي شهور على الإعلان من قبل المجتمع الدولي بأن ما يجري هو حرب أهلية شاملة وضارية وعلى شيوع مصطلح "الأزمة السورية" باعتباره الأكثر استخداماً في الخطاب السياسي والإعلامي الدولي. ومع ذلك فسوف تستخدم هذه الدراسة مصطلح الثورة وذلك استجابة لشروط المشروع البحثي العام الذي ستشكل هذه المساهمة جزءاً منه وكذلك لإحياء الأصدقاء الأولى لإنطلاق الحراك السوري وطفولته الثورية قبل أن يتغير مساره ليصبح ما هو عليه الآن وهو الموضوع الذي ستحاول هذه الدراسة استكشاف تفاصيله وأسبابه ونتائجه.

تشكل الثورة الاجتماعية حادثة فريدة وكبرى في حياة الشعوب لأنها تزلزل واقعها ومحيطها في آن واحد، وهي تمثل صورة استراتيجيات سلطة جديدة محددة للوصول إلى الديمقراطية والتغيير الهيكلي، وهذا المفهوم يرتبط بفكرة المجتمع الأفضل في الخطاب الثوري. أما ميزاته الخاصة فتتعلق بشكل عضوي بنطاق المجتمع وعمقه وكذلك بالعنف والمعاناة التي يتضمنانها ولا سيما بالنسبة إلى الشعب الداعي لها والقائم بتحقيقها.

وبالرغم من أن انطلاق الحراك الاجتماعي الثوري في بعض الدول العربية كان المفاجأة الكبرى لكثير من المحللين والمفكرين والسياسيين وعلماء الاجتماع إلا أن هذه الثورات كانت نتاجاً طبيعياً لهدر كرامة الإنسان العربي في كافة الأقطار العربية ونفشي منظومة الاستبداد الحاكمة وحالة الفساد المستشري لحكامها ومؤسساتها.

اقتحمنا (من الذي اقتحم) الحدث الثوري دون وعي منا، ودقت لحظة البوعزيزي، ففاجأت تونس الجميع بثورتها الفريدة وروحها الشبابية، وتثيرها مختلف فئات المجتمع، مفككة النسق التسلسلي المستبد. لا أحد تنبأ بالزلزال التونسي أو توقع زخم جماهيريته وإبداعه الثوري وصموده الأسطوري وانتصاره الكاسح، محطماً حاجز الخوف محدثاً تغييراً نفسياً استراتيجياً هائلاً يستحيل معه استمرار أنساق الاستبداد والفساد والتبعية في احتكار السلطة والثروة واستمرار سياسات القهر والظلم وتفكيك الهوية. لقد نقلت الثورة التونسية الإنسان العربي من طور النموذج السلبي المقهور إلى طور النموذج القادح للفعل ضد الطغيان واستلاب الإرادة والمشبع بروح التحدي والصمود والكفاح، كما ألهمت "البوعزيزية" شرارة الحراك الثوري المصري واليمني والليبي والسوري(1)

إن نجاح الثورتين التونسية والمصرية، في تغيير البنية السياسية القائمة، أعطت دافعاً ومحفزاً كبيرين للمجتمع السوري للثورة ضد سلطة الدكتاتورية فانطلقت شرارة الثورة السورية من محافظة درعا إثر اعتقال عدد من الاطفال وزجهم في السجون وإهانة السلطة لبعض وجهاء المحافظة، إضافة الى الفساد والخوة (ما معنى الخوة) التي كان يفرضها المحافظ ورئيس فرع الأمن السياسي على سكان درعا. وساعدت تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات الجديدة على تحريض الواقع وزيادة المطالب الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية وحتى الرمزية، بعدما كانت هذه المطالب تتمظهر عبر مؤسسات مجتمعية ظهرت حسب الظروف الموضوعية التي عاشتها سورية.

لقد لعبت النقابات في بداية 1980 دوراً محورياً في مجابهة السلطة وتشريح بنيته ونسف شرعيتها وتفكيك منظومتها على المستوى النظري من حيث استبدادها وفسادها (يجب توضيح كيف ساهمت النقابات في ذلك ؟؟؟؟). ثم كانت ظاهرة المنتديات السورية في (يفضل وضع السنة) سبباً في تحريك الواقع السياسي والاجتماعي الراكد في سورية بعد فترة طويلة من الحكم الديكتاتوري الاستبدادي القائم منذ 40 عاماً، إلا أن النظام التسلسلي في سورية تعامل مع هذين التحركين بشكل تدميري من خلال اعتقال أعضاء النقابات والمنتديات وركنهم في السجون لفترات طويلة.

منذ انطلاق انتفاضة الكرامة والحرية في سوريا بتاريخ 18 اذار 2011 ركز المنتفضون على ثلاث قواعد أساسية في عملهم ومقاومتهم: الأول سلمية الحركة، الثاني رفض الطائفية، والثالث رفض التدخل الخارجي، وشكلت هذه المبادئ الثلاثية ثوابت لا يمكن المساس بها. وإزاء هذه الوضعية أخرج النظام بهمجيته وتسلبه واستخدامه للعنف والحلول الأمنية المتطرفة الثورة من وضعيتها السلمية بوصفها حالة نضالية ومقاومة مدنية من أجل الحرية والكرامة، إلى وضعية العنف فأجبرها على حمل السلاح والدفاع عن النفس والمقاومة المسلحة. وقام بترهيب المجتمع ككل مما أدى إلى نقل الصراع من حركة مقاومة مدنية إلى حركة مقاومة مسلحة تركز على تطييف (توضيح كلمة تطييف ماذا تعني بها تحديدا هنا في هذا المقام) المجتمع وقبول التدخل الخارجي. وبالتالي حاول النظام توصيف الوضع، سياسياً ومدنياً وأخلاقياً، وكذلك من منظور القانون الدولي، على أنه حركة تمرد ضد سلطة قائمة.

ومن منظور مجتمعي - ثقافي بدأ النظر إلى الحركة الثورية على أنها حركة تمرد تحمل في طياتها خطر تقسيم سوريا، وحركة تمرد غير وطنية في برامجها وأدائها باعتبارها تقبل بالتدخل الخارجي في مستقبل البلاد وقضايا السيادة.

ولأسباب كثيرة موضوعية وذاتية - بعد تسعة عشر شهراً من الثورة وتدخل العامل الإقليمي والدولي - نتج زلزال طائفي كبير في الواقع الاجتماعي السوري وهو موضوع البحث الذي نحن بصددده. ولا تبدو هذه التحولات الكبرى أمراً غير مألوف بالنسبة للمنظرين الذين درسوا تاريخ الحركات الثورية كما يبدو في التعريف الذي يطرحه جيفري بيج :

"إن الثورة هي تحول سريع وأساسي في فئات الحياة الاجتماعية والوعي، والافتراضات المورائية التي تركز عليها هذه الفئات، وعلاقة القوى التي يعبر عنها كنتيجة للقبول الشعبي الواسع النطاق للبديل الطوباوي للنظام الاجتماعي الراهن". (2)

إن التغيرات البنوية في مسار وتركيب المجتمع السوري بفعل الثورة ولاسيما تصاعد الممارسات الطائفية تدعونا إلى البحث في هذه الظاهرة ودوافعها وآلياتها ونتائجها منذ النظام المللي العثماني وطبيعة المجتمع السوري مروراً بوثيقة الاستقلال الأولى ودور الفرد والقوى السياسية والمدنية وديناميكية التغيير وانتقال المخيال الجمعي السوري من الطائفية الاجتماعية إلى الطائفية السياسية.

الطائفية - مفهومها - دوافعها

إن أعظم المقومات لصحة السياسة وإقامة الحق هو أن تكون شرائعها متساوية بالنسبة لجميع أبنائها دون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال. (فيه القول خلل في الترجمة)

الطائفية حصيلة لواقع ولجملة أوضاع اجتماعية، وهي ناتجة عن عوامل اجتماعية وسياسية تعود إلى جذور عميقة في المجتمع السوري على المستوى الاجتماعي، فهي بنية مجتمعية تتردد على نفسها أثناء الأزمات كي تمارس دوراً يقبله أفراد الطائفة، وذلك من خلال حمايتهم أو تنظيم شؤونهم وإدارتها .

وجدت الطوائف في سورية منذ فجر الحضارة السورية، واستمرت تاريخياً باعتبارها جزءاً من مكونات المجتمع السوري. وكسائر التكوينات المجتمعية التي تؤلف المجتمع السوري، تتشابه الطوائف في كثير من معطياتها النفسية والوطنية، لكنها تتمايز عن بعضها ببعض القضايا التي تخص تكوينها ومرجعيتها الدينية، لتكون في مجملها مجتمعاً له مصالح وأهداف مشتركة إلا أنها تأخذ في الانزياح والتعصب إذا حدث خلل ما في المجتمع ككل، من حيث إبعادها عن القرار والمشاركة السياسية أو تهميشها على المستوى الاقتصادي. لكن هذه الانزياحات تجنح في جوهرها إلى الفعل السياسي لا إلى المجال الديني أو العقيدة مما يؤدي إلى نشوء دفاع متعصب عن دين أو مذهب، ويحاول المنتمون إليها تحويلها إلى عصبية سياسية لتحقيق مطالب فتوية ومصالح خاصة. وتشكل الطائفية كآلية استثمار سياسي رئيسي في البنى المدنية، أو كتحريف لوظائفها الأساسية على الصعيد الاجتماعي الثقافي، نوعاً من نشوء ساحة موازية أو سوق سوداء للتداول أو التنافس على السلطة". (3)

رغم التمايز في المرجعيات الطائفية الدينية حول التسامح وقبول الآخر والركون إلى النص المقدس وآليات تفسيره وتأويله إلا أن جميعها تزعم أنها تحتكر الحقيقة المطلقة. ولما كانت الجماعات الطائفية — السياسية — كائنة ما كانت هويتها الدينية — تزعم احتكارها الحقيقة المطلقة، فإنه من المتوقع أن تدعي امتلاك المعايير الأخلاقية الصحيحة، والمعرفة الحقة لما تعنيه إرادة الله ورسالته، وأن لا جماعة سواها تمثل هذه الإرادة خير تمثيل. بعبارة أخرى، ان الملكية الحصرية للحقيقة لا بد من أن تتضاعف بالملكية الحصرية للخير، وإن الصراع على الأولى يؤدي إلى الصراع على الأخرى. وهذا الصراع الاصطفائي هو، في الحقيقة، ثمرة افتتان وهمي بين وهمين أيديولوجيين متأخيين: وهم الشمولية، وهم المطلقية. ولا تعري الحركات الطائفية السياسية من منزع شمولي يبيح لها الاستئثار بالسلطة المطلقة والدائمة، على اعتبار أنها تملك منظومة عقائدية كاملة وصحيحة، تفسر جميع الوقائع، وتقدم حلولاً صائبة للمشكلات الحياتية، العامة منها والخاصة. وهي بذلك لا تقتصر على تسييس الدين فحسب، بل تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى ديننة المجتمع والحياة. وكذلك تفترض النزعة الشمولية وهم المطلقية وتستدعيه. أما الطابع المطلق الموهوم فيتجلى في اعتقاد هذه الجماعات أولاً بأن أيديولوجيتها تشتمل على مبادئ وقواعد وأحكام وحقائق عابرة للأزمنة والأمكنة، لا ينتهي تاريخ صلاحيتها حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ثانياً إن هذه المبادئ لا يمكن أن تتعارض بعضها مع بعض في مطلق الأحوال. ثالثاً إنها مطلقة بحكم

كونها صادرة عن كائن مطلق لا يطرأ على كلامه أي تغيير أو تبدل. رابعا أنها مطلقة بمعنى أنها المرجع الوحيد والأساس الأخير لكل المبادئ الصحيحة العلمية والعملية. (4)

في مفهوم الطائفية :

ينبغي الفصل بين معنيين، المعنى المراد من كلمة "طائفة"، والمعنى المركب والمختلف للطائفية، بحيث يتحول المعنى إلى مصطلح مركب يحمل في طياته تأويلات كثيرة، وبالتالي يصبح الأخذ بها محفوفاً بالمشكلات. (العبارة غير مفهومة تحتاج إلى التوضيح)

فالطائفة في اللغة الجزء، ورد في لسان العرب (الطائفة من الشيء: جزء منه. (لسان العرب)، والجماعة والفرقة، جاء في المعجم الوسيط (الطائفة: الجماعة والفرقة، وفي التنزيل " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. " والطائفة: جماعة من الناس يجمعهم مذهب أو رأي يمتازون به . والطائفة: الجزء والقطعة.) وقد وردت الإشارة إلى الطائفة بالمعنى اللغوي في القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الحجرات: 9) وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (القصص 4) ،

أما الطائفة اصطلاحاً فهي مذهب ديني مقصور على عشيرة أو قبيلة أو شعب معينين. والطائفية أيضاً علاقة انتماء إلى طائفة معينة. (5) توظف؟؟؟ من هي سياسياً وتأخذ صفة الأنانية اللاعقلانية، تستبيح كل الوسائل المباحة في سبيل تحقيق مصالحها الخاصة، وتسخر كل القيم والنصوص الدينية والمظلومية من أجل بلوغ هذه المصالح.

والطائفية حسب تعريف الأكاديمية العربية في الدنمارك هي نظام سياسي اجتماعي متخلف يركز على معاملة الفرد كجزء من فئة دينية تنوب عنه في مواقفه السياسية، وتشكل مع غيرها من الطوائف، الجسم السياسي للدولة أو الكيان السياسي، وهو لا شك كيان ضعيف، لأنه مكون من مجتمع تحكمه الانقسامات العمودية التي تشق وحدته وتماسكه، ويستتبع ذلك أن تتحكم الطائفة بحياة الفرد الشخصية، وتحكمه وفق قوانينها وشرائعها الدينية، والتي يقوم فيها رجال الدين بوظيفة الوسيط والحكم في آن معاً. ومثل هذا النظام الطائفي يحرم الفرد من حقه في المساواة ومن تعامله مع الدولة والمجتمع على أساس ديموقراطي. (اين هو التوثيق) .

هنا نحن إزاء عنوان جديد (الطائفية في سوريا)

ومن المؤسف أن جلّ الوعي السائد في مجتمعاتنا حول الطائفة والطائفية يأخذ صورة وعي ذاتي غرائزي ينطلق من المبادئ الشمولية، ويركن إلى أحكام كلية تفنقر إلى أدنى مستويات العقلانية والموضوعية. إنه وعي طائفي

بامتياز ونعني به هذا الشكل من الوعي الذي يضع الآخر الطائفي في مربعات الإدانة والالتهام والتبخيس المطلق. وفي هذا المستوى تكمن المهمة العضوية والتاريخية للمفكرين في ترسيخ هذا النوع من الوعي الموضوعي بالطائفة والطائفية والمذهب والمذهبية على حساب الوعي الذاتي القائم على المطلقات الحسية الغريزية المعادية للآخر والمنادية بإزاحته.

وهناك فرق كبير بين الغائية الطائفية والأداتية الطائفية وكلاهما مذموم: فالأول يعني أن تمارس السياسة لتحقيق مصالح طائفية لطائفة بعينها، أما الثانية فتعني أن توظف الطائفة للمصالح الخاصة الأنوية للحاكم أو للنظام أو لعائلته وكلاهما شر مستطير. ووفقاً لهذا التصور فإن النظام في سوريا ليس طائفيًا غائبًا أبداً كما يرى كثير من الباحثين في هذا الشأن لأنه لا يعبر في أي حال من الأحوال عن مصالح طائفة بعينها حتى الطائفة العلوية التي يتحدر منها الأسد. وبالمقابل يمكن القول بلهجة التأكيد أن النظام السياسي نظام طائفي أداتي بامتياز، أي: أنه يوظف الطائفة في خدمة مصالحه وسياسياته ويضحي بمصالح الجميع من أجل مصالحه الخاصة.(6)

إن حالة اغتراب الدولة عن المجتمع يشكل الحافز القوي في تأصيل الطائفية وعودة المجتمع الأهلي إلى تكوينات ما قبل الدولة، طائفية كانت أو مناطقية أو عشائرية فيتحول أفراد المجتمع بانتمائهم للدولة الوطنية إلى تلك التكوينات، وحالة الاغتراب تلك ناتجة عن حالة الاستبداد والفساد للدولة وهدر كرامة الإنسان.

إن الاستحواذ على السلطة من قبل فئة ما، وعدم السماح للمشاركة السياسية والقرار لباقي الفئات، إضافة للسيطرة على المقدرات الاقتصادية لهذه الفئة، وانتشار الفساد في أجهزة الدولة، وعدم تطبيق العدالة الاجتماعية، وانقاص حق المواطنة الكاملة بين أفراد المجتمع، والانتهاكات لحقوق الإنسان على المستوى الفردي والجماعات من قبل الدول، والعوائق الذهنية والثقافية المترسبة في المجتمع، جميعها دوافع تؤدي إلى حالة انفصام بين الدولة وأفراد المجتمع، وبذلك تنتزع السلطة السياسية من المجتمع فيصبح الانتماء الطائفي بديلاً عن الانتماء السياسي.

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول: إن لا علاقة ضرورية للطائفية بالدين إلا ببعض الجزئيات الخاصة بماهيته واستخدامه للنص الديني، فالجوهر الحقيقي للطائفية يكمن في المجال السياسي فيتم توظيف الدين لأهداف ونزعات سياسية تخص هذا الطرف أو ذاك.

نظام الملل العثماني والمكونات الطائفية للمجتمع السوري

إن نظام (الملل) العثماني ترافق مع علاقات أكثر خطورة أقامتها الدول الكبرى حينها مع الأتراك ففي بداية الاحتلال العثماني للمنطقة العربية، أعطى العثمانيون امتيازات تجارية إلى الفرنسيين عام 1535. وقد استغل الفرنسيون هذه الامتيازات لتطوير نفوذهم ومصالحهم في المناطق التي يسيطر عليها الأتراك، لذا، فقد عملوا من أجل دق أسافين بين الطوائف المختلفة، بهدف حفر الشعور القومي المتنامي في الوطن العربي.(7)

من الجانب الآخر، فرضت فرنسا والدول الاستعمارية الأخرى على السلطنة العثمانية ما يسمى امتيازات الحماية التي تتمثل بحماية بعض الطوائف السورية والتي تنص بموجب الاتفاقات المبرمة بين هذه الدول والسلطنة العثمانية على أن يكون لروسيا حق حماية الروم الأرثوذكس وفرنسا حماية الكاثوليك وللمسا حماية اللاتين الكاثوليك، ولم تجد بريطانيا لقلة عدد البروتستانت سوى حماية الدروز. وبالرغم أن كافة هذه الطوائف لم تطلب الحماية من هذه الدول ولم يكن لها يد في هذه الاتفاقيات، لكنها مع الزمن أصبحت جزءاً من هذه الاتفاقيات وتفاعلت معها. إلا أن هذه الاتفاقيات كانت تؤكد على العبارة التالية: " سوف يقيم هؤلاء الرعايا في ظل حمايتنا ويعيشون في كنفنا السلطاني الذي يحميهم من كل اعتداء".

استمدت السلطة المركزية العثمانية كثيراً من قوانينها طبقاً للشريعة الإسلامية على أساس المذهب الحنفي، واعتبرت نفسها الوريث الشرعي للخلافة الإسلامية، واتخذ السلطان العثماني لقب "خادم الحرمين الشريفين" ... الخ.

أما علاقة هذه السلطة المركزية بغير المسلمين، أو بأهل الكتاب من مسيحيين ويهود وصابئة، فكانت طبقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية، فسمح لهم بالحفاظ على عقائدهم الخاصة، وبأن يتمتعوا بالحماية كرعايا للسلطان شرط أن يدفعوا الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أراضيهم. وفي صلب تطبيق العثمانيين للشريعة الإسلامية يبرز منذ البداية التمييز الطائفي، ليس بين المسلمين وأهل الكتاب فحسب، بل بين الطوائف الإسلامية نفسها، إذ اعتبروا أنفسهم ممثلين "للسنة" أو الإسلام الحنيف وعاملوا الشيعة وباقي الطوائف غير السنية، من دروز وإسماعيليين وعلويين وغيرهم، معاملة قاسية عرفوا معها من أنواع الاضطهاد ما لم تعرفه أية طائفة من طوائف أهل الكتاب. وكانت تلك التدابير باسم "الشريعة الإسلامية". (8)

تعد "الطائفة" إحدى الركائز الأساسية للنظام الاقتصادي العثماني. " فإذا كان الدين هو البنيان الإسلامي للمجتمع، فإن الطوائف كانت الاحجار التي بني عليها ... فالتجار والحرفيون والعمال والطلاب والمعلمون وخدم المنازل وكل التجمعات المدنية لها لوائح منتظمة، ورؤساء منتظمون، ومقادير معينة من الضرائب المفروضة عليها. وكل فرد من أعضاء الهيئة الاجتماعية ينتسب بالضرورة إلى إحدى الطوائف ويعتبر عضواً فيها ". (9)

أخذ العثمانيون ينظمون دولتهم على أساس عسكري إقطاعي فأعطيت أكثر الأراضي السلطانية إقطاعات إلى قادة الجيش مقابل خدمة السلطنة وجباية الضرائب وتقديم خدمات عسكرية. لكن بعض الأراضي أقطعت لشيوخ القبائل وبعض الشخصيات الدينية المتنفذة وكانت تتولى أراضي الوقف.

كان الأمراء والمقدمون يتولون الزعامة وهي شبة استقلالية إذ يضمنون الولاية من الحاكم الأكبر فيدفعون عنها مالاً مقطوعاً ويتصرفون بالشعب كما يريدون من فرض الضرائب، وتجنيد العساكر واحتكار بعض الشجيرات والمعادن والممالح والاسفنج والغلال والحاصلات الأخرى ونحو ذلك. (10)

بالنظر خلفاً، يعتبر نظام الملل العثماني السبب الأول في تفسخ سكان سوريا طائفيّاً إلى ملل ومذاهب ورعايا وبسبب هذا النظام المللي والظلم الاجتماعي والمذابح التي ارتكبت بحق جزء من الشعب السوري "السريان" قامت انتفاضات وثورات عدة في أغلب المناطق السورية وخاصة الريفية منها وشكلت هذه المرحلة حال تقوقع لأغلب الطوائف السورية غير السنية، كما شهدت تلك المرحلة مجموعة من الحروب بين الطوائف بسبب التنازع على الأمتيازات .

وبسبب التراتبية في نظرة النظام المللي العثماني الذي صنف السوريين حسب طوائفهم إذ أعطى المذهب الجعفري المنزلة الخامسة بعد المذاهب الأربعة السنية يليهم الإسماعيليون ، بينما كان الدروز والعلويون غير منظور إليهم كمسلمين لا من السلطة العثمانية ولا من أهل الديانات الأخرى فمورست بحقهم أبشع أنواع التنكيل والاضطهاد. وقد عاشت هاتان الطائفتان منكشيتين في قراهما الجبلية في حرص وحذر وخوف وعزلة. كان هناك ما يزال ثمة فرق كبير بينهما، لأنه ولأسباب موضوعية ولمرونة الحركة وإدعاء بريطانيا بحمايتها كانت نسبة الاضطهاد للطائفة الدرزية والتنكيل بها أقل بكثير من الطائفة العلوية.

وظل العلوي مضطهداً طوال العهد العثماني، الذي استمر أربعة قرون، فمنعت عنه الوظائف الحكومية حتى الصغيرة منها، وحتى تلك التي لا تتطلب شيئاً من العلم والكتابة، وكان دوماً عرضة للإمتهان من قبل رجال الحكم والزعماء من أهل المدن، فإذا جاءها علوي، لم يسمح له بدخول مساجدها وجوامعها ولا يأكل شريكهم في الدين من ذبيحة العلوي. ولطالما باع العلوي نصف أملاكه من أرض ومزارع بثمن زهيد أو بلا ثمن لأهل المدن، ليتمتع بحمايتهم من ظلم جار متنفذ، أو من قسوة جباة الضرائب ورجال الدرك، فكان على وجه الإجمال محروماً من الحرية والكرامة، بينما يعتصم زعماء العشائر من أبناء مذهبه بمناعة الموقع، محافظين على عزة نفوسهم وشممهم وإيائهم.(11)

مورست بحق العلويين أبشع أنواع النظام الإقطاعي قسوة واضطهاداً، وبعكس الريف السوري - الذي كان مملوكاً للإقطاع المحلي دون الفلاحين - كانت معظم المناطق العلوية مملوكة أرضاً وفلاحين لأسر سنية إقطاعية " إضافة إلى ممارسة نوع من الرق بحق بنات العلويين من خلال تأجيرهم كخادمت في البيوت، وهذه التجارة بدأت عام 1921 عندما فرض الفرنسيون غرامات جماعية على القرى المتمردة" (12) مما شكل فجوة نفسية عميقة لتلك الطائفة اتجاه الطوائف الأخرى انعكست على مستقبل الواقع السوري لاحقاً.

رغم كل العذابات التي تلقاها هذا المكون الاجتماعي في الواقع السوري إلا أن قادته كانوا شعلة في الوطنية ومجابهة أي نزعة طائفية، إذ عندما سئل الشيخ صالح العلي مرة: كم هي نسبة المسلمين السنة في سورية؟ أجابهم يومها: نسبتهم 100% فاستغربوا وقالوا: كيف و أنت زعيم المسلمين العلويين؟ قال يومها كلمة سجلها التاريخ: عندما يستهدفون السنة في سورية نصبح كلنا سنة!

وفي مطلع العشرينات من القرن المنصرم بُعيد الاحتلال الفرنسي لسورية امتدت يد السوء تحت مبدأ "فرق تسد" إلى إذكاء روح البغضاء بين المواطنين العرب المسلمين من "العلويين والسنة" في منطقة بانياس الساحلية ، فحدثت الفتنة ، وبغض النظر عن الأسباب ، والمسبب ، انتهت إلى أن البعض من "المسلمين العلويين" أحرقوا ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم من مال وحيوان ، فوقف الشيخ الجليل سليمان أحمد غاضباً مستكراً ، وأصدر فتواه الشهيرة التي ننقلها حرفياً :

"إلى سائر إخواننا من أهل الولاية"

(إن هذه الفوضى خارجة عن الدين والإنسانية معاً ، فالواجب على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ويوالي العترة الطاهرة أن يبذل وسعه لإرجاع هذه المسلوبات إلى أربابها . ومن منعه الجهالة والعصبية من الإنقياد إلى أمر الله وطاعة المؤمنين ، فليُهجِر ولا يُعَاشِر ولا يجوز أن تُقبل منه صدقة ولا زكاة ولا يُصلى عليه إذا مات حتى يفى إلى أمر الله ، وبما أنه لا قوة لنا على تنفيذ أحكام الشرع الشريف في هذه المسألة ، فنحن نفعل ما يجب علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا نقع تحت طائلة الوعيد . فإن المنكر إذا فشا عمّت عقوبته الحُلماء والسفهاء معاً ، فالعقوبة تقع على الحُلماء لترك النهي ، وعلى السفهاء لعدم التناسي ، وإذا وُجد من المشائخ من يتساهل مع أهل الجهالة يُعامل معاملتهم . اللهم إنا نبرأ إليك من هذه الأعمال الجائرة وممن يُقرّها . ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .)

- خادم الشريعة الإسلامية المقدسة

سليمان أحمد

لم يكن بيد الشيخ الجليل أية سلطة زمنية رادعة ، فقط كانت سلطته على الوجدان والضمان ، فبعد أن ندد بالفعل فوجئ الجهلة بهذا الموقف الحازم ، فتهافتوا على المراكز المخصصة يعيدون كل ما لديهم من أسلاب ونهائب وأمنّ المسلوبون والمنهوبون ، واستدعوا لهذه المراكز ليتعرّف كل منهم على دوابه ومسلوباته ، ويأخذها آمناً مطمئناً . (13)

إننا نورد هذه الواقعة لتبيّن لكل من يعنيه الأمر أن الشعب في ظروف المحن يحتاج إلى صوت الحكمة والعقل ، لمواجهة الغرائز والتوحش والجهالة ، لم يتطرق الشيخ لمن تسبّب بالفتنة لأنه يرفض تبرير الجهالة بالجهالة ، وهو قاضي قضاة المذهب العلوي الإسلامي الذي اعتمد الفقه الإسلامي مصدراً لأحكام المحاكم المذهبية في جبال العلويين عام 1922 فساء ذلك الحاكم الفرنسي آنذاك الجنرال "بيوت" الذي كان يسعى لعزل الجبل ، وذلك إمعاناً في تقسيم ما تبقى من سورية إلى دول ، فقابل الشيخ يُزيّن له الأخذ بنظام العرف والعادة ، ويغمز من ناحية الفتاوى التي صدرت عن البعض يُحلّ فيها قتل العلويين وسبي نسائهم ... وعندها تبيّن الشيخ الجليل هدف

الجنرال، فانتفض مُغضباً ناسياً رهبة السلطان وجبروته وقال: "إن الغرض يُعمي ويُصم"، (سيادة الجنرال: سواء عبدنا الحجر أو عبدنا المدر، فليقينا أن هذا هو ما جاء به محمد بن عبد الله، فالشاك أن يشك في صحة فهمنا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن لا شك في انتسابنا واتباعنا له). لم يكن الموقف موقف حوار، وإنما كان موقف حسم، وهكذا كان. (14)

المكونات الطائفية للمجتمع السوري:

رغم الأرضية الثقافية المشتركة والموحدة لكافة مكونات المجتمع السوري إلا إنه من أكثر المجتمعات العربية تنوعاً، وهو من أكثر المجتمعات الشديدة التنوع استقراراً في الوقت ذاته. وإذا كانت المركزية (أي قيام دولة مركزية) والاستقرار الاجتماعي والسياسي معيارين أساسيين، فإن التركيب السكاني في سورية لم يكن في يوم من الأيام حائلاً دونهما، رغم الرجحان العددي لأكثرية المجتمع القومية (العرب)، ولأكثرية الدينية (المسلمين السنة)، ولتوافق الأكثرية القومية والأكثرية الدينية. هناك تضارب في المعلومات حول نسب الطوائف في مختلف المراجع المختصة بالموضوع وبين تقدير وآخر في المصادر العربية والدولية لأن بعض الأقليات تعرف نفسها مذهبياً وبعضها إثنيّاً وبعضها الاثنين معا ولهذا سنحاول تأسيس مقاربة إحصائية عبر مقارنة المعلومات الواردة في عدة مراجع كبرى بما فيها تقرير UNHCR المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة "الدليل العالمي للأقليات وسكان البلاد الأصليين، سوريا تشرين الأول 2011" (15)

<http://www.unhcr.org/refworld/country,,,COUNTRYPROF,SYR,,4954ce5ac,0.html>

عدد السكان حسب التقدير الإحصائي الأمريكي في 2010 يبلغ 22.5 مليون يشكل فيه العلويون 2.1 مليون، الشيعة الإسماعيليون والشيعة الإثني عشرية 386 ألف، المسيحيون (بطوائفهم العديدة وأكبرها الروم الأرثوذكس والسريان الأرثوذكس والموارنة والرومان الكاثوليك والروم الكاثوليك) 1.9 مليون، الدروز 580 ألف. أما الأرمن فهم حسب إحصائيات موسوعة Ethnologue 1993 يبلغون 323 ألفاً.

يقارب عدد الأكراد 2 مليون أي حوالي 10% حسب تقرير المقرر الخاص لحقوق الغذاء في الأمم المتحدة أوليفيه دي شاتر.

التركمان أقلية أصغر عدداً من الأرمن والأكراد وهناك نقص ملحوظ في المعلومات عنهم، هناك عدة آلاف من الشركس، الأغلبية العظمى من التركمان والشركس والأكراد هم من المسلمين السنة، مع وجود أقلية كردية علوية لا تضيفها أي من المصادر إلى عدد العلويين العرب.

يبلغ الفلسطينيون 442 ألف حسب إحصائيات الأونروا 2006 واللاجئون العراقيون حسب تقرير وزارة الصحة السورية 1.5 مليون. ويقدر تقرير US, CIRF 2007 عدد اليهود بـ 100-200 يتوزعون في دمشق وحلب. وهناك أقلية من اليزيديين وأخرى من الطائفة المشرقية.

أما بالنسبة للنسب فنتوزع على الشكل التالي:

ترى بعض المصادر أن العرب يؤلفون نحو 89 % من مجموع السكان ، يليهم الأكراد 7 % وتختلف المصادر في تقدير نسبة السنة العرب وتتراوح تقديراتها ما بين 58-64 % كما أن معظمها يتفق على أن نسبة السنة بشكل عام تتراوح ما بين 71-74 %. العلويون 11 %، الشيعة الإسماعيليون والإثني عشرية 2 %، المسيحيون (بمن فيهم الروم الأرثوذكس والسريان الأرثوذكس والموارنة والرومان الكاثوليك والروم الكاثوليك) 10 %، الدروز 3 %، الفلسطينيون 2.3 % ألف، أما الأرمن فهم 1.7 % حسب إحصائيات موسوعة 1993 Ethnologue.

من جهة أخرى يحدد تقرير US, CIRF 2007 يُحدد نسبة العلويين بـ 13 %، بينما يحدده UK FCO بـ 11 %. وترى بعض المصادر أن المسيحيين العرب يؤلفون نسبة 8.9 %. وإذا أضيف الأرمن، وهم مسيحيون، نسبتهم من السكان نحو 4 %، تصبح نسبة المسيحيين نحو 12.9 % من مجموع السكان.

من الجدير بالذكر أن عدة مصادر ترى أن الفروق الديموغرافية والاجتماعية تمثل عاملاً إضافياً للاختلاف بين سكان المدن، أهل الأرياف والبدو. ويرى تقرير المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة أن الصراع بين هذه المجموعات الثلاث وخاصة بين المجموعتين الأخيرتين لا يقل حدة عن الخلافات المذهبية.

وثيقة الثورة السورية الكبرى ودلالاتها الطائفية

بعد خروج العثمانيين وتقسيم سورية حسب اتفاقية سايكس بيكو من قبل فرنسا وبريطانيا واحتلال فرنسا للأراضي السورية عام 1920 وقيام الثورات في أغلب المناطق السورية تشكل تحول جذري على المستوى الطائفي إلا أنه مع معركة المزرعة في السويداء وخسارة الفرنسيين وانتصار المقاومين أدركت الحركة الوطنية السورية أنها أمام منعطف كبير فكانت معركة المزرعة معركة فاصلة في هذا التحول إذ نقلت المعركة من إطارها المحلي إلى إطارها الوطني، فتداعت في حينها الحركة الوطنية السورية للاجتماع بسلطان باشا الأطرش.

عقد الاجتماع في قرية ريمة الفخور بتاريخ 23/8/1925 وحضر الاجتماع كل من سعيد بيك حيدر وعبد الرحمن الشهبندر وحسن بيك الحكيم وعدد من الوطنيين السوريين مع الثوار في جبل العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش وبعد الاتفاق على تسليم قيادة الثورة السورية لسلطان باشا الأطرش صدر البيان التالي من قبله ليؤسس في اعتقادي للعقد الاجتماعي الأول للدولة السورية جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين لله والوطن للجميع

— إلى السلاح! إلى السلاح —

« يا أحفاد العرب الأمجاد.. هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم، والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم. هذا يوم انتباه الأمم والشعوب، فلننهض من رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا. لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال. فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكنت القلم، ولا يضيع حق وراءه مطالب ..»

« أيها السوريون.. لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى، فلنأخذ حقنا بحد السيف، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة ..»

« أيها العرب السوريون.. تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي. تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغي. ولقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد، وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير، وحرية التجارة والسفر، حتى في بلادنا وأقاليمنا ..»

« إلى السلاح أيها الوطنيون.. إلى السلاح، تحقيقاً لأمانى البلاد المقدسة. إلى السلاح، تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة. إلى السلاح، بعدما سلب الأجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم ونقض عهودكم ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية، وتناسى الأمانى القومية ..»

« نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة. يا ويح الظلم! لقد وصلنا من الظلم إلى أن نهان في عقر دارنا، فنطلب استبدال حاكم أجنبي محروم من المزايا الإنسانية بأخر من بني جلدته الغاصبين، فلا يُجاب طلبنا، بل يُطرد وفدنا كما تطرد النعاج! ..»

« إلى السلاح أيها الوطنيون.. ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة. إن حربنا اليوم هي حرب مقدسة، ومطالبنا هي:

1. وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.
2. قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.
3. سحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش محلي لصيانة الأمن.

4. تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء ..»

« إلى السلاح.. ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة، كما كتبها أجدادنا من قبلنا ..»

« إلى السلاح.. والله معنا، والإنسانية معنا، ولتحيا سورية حرة مستقلة ..» (16)

1925/8/23

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية

إن أهم دلالات هذا البيان هو ما جاء في مقدمته " الدين لله والوطن للجميع " لتؤسس تلك العبارة علاقة المواطنين السوريين بوطنهم على أساس المساواة بغض النظر عن انتمائهم الديني والقومي وتحديد الدين عن الدولة المنشودة وأهمية هذا البيان تكمن بوجود عدد من الممثلين الوطنيين للمناطق السورية والطوائف، إذ ينتمي الشهبندر إلى السنة الدمشقية بينما يتحدر سعيد بيك حيدر من العائلة الشيعية الممتدة بين البقاع ودمشق ومنطقة السلمية، وينتمي سلطان باشا إلى الطائفة الدرزية مما يعطي صورة رمزية للمناخ الثقافي الذي كان يتحرك فيه قادة الثورة كما أن تفاعلهم والاتفاق بينهم ولد هذا الشعار الذي أصبح الركيزة الأولى للدولة السورية التي تأسست في المرحلة اللاحقة.

إضافة لهذا الشعار حدد البيان شكل الدولة السورية القائمة على العدل وحقوق الإنسان والحرية والمساواة والإخاء بين المواطنين وتأليف جيش وطني ومجلس تأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الشعب سيادة مطلقة. شكل هذا البيان في مضمونه الرافعة لتوحيد مكونات الشعب السوري تحت راية واحدة فتجاوز الطائفي إلى الوطني ورسم قواعد جديدة للبنى الاجتماعية الطائفية في تعاطيها مع بعضها من خلال مبدأ أن الوطن للجميع دون تمييز .

الواقع الاجتماعي الطائفي السوري والحركة الوطنية السورية

إن العلاقات الدينية بين الجماعات البشرية، من ارتباطات واندماج وانشقاقات واختلافات، تتعلق بعوامل التقارب والتباعد، التآلف والعداء، بين معتنقي الأديان المعنية كمجموعات بشرية ذات ظروف ومصالح معينة (أو واقع معين). فإذا غضضنا النظر عن الدين كتلبية لحاجة روحية تحتل بهذا القدر أو ذاك مساحات من المجال النائي عن الحواس والعقل، فإنه يبقى انعكاساً معيناً للواقع في الوعي البشري. ويجري انعكاس الواقع بشكلين لا ينفصلان، كوجهي العملة الواحدة: واحد موضوعي، والآخر ذاتي. (17)

عالج مفكرو النهضة الأوائل في بلاد الشام موضوع الطائفية لإحساسهم العميق بتأثيرها على الواقع الذاتي والموضوعي على الفرد والمجتمع، أثرت أفكار هؤلاء بشكل كبير على الحركة الوطنية السورية وأعطتها أسسا

فكرية للتعامل مع الظاهرة الطائفية فقد كتب المعلم بطرس البستاني في العدد الأول "تفكير سورية" على إثر الفتنة الطائفية التي اندلعت في جبل لبنان بين النصاري والدروز، والتي امتدت إلى دمشق عام 1860: يا أبناء الوطن، إن الخراب والدمار الذي حل ببلادنا هذه لا يوجد له نظير في التاريخ. وأسبابه غير مجهولة لدى الكثيرين منكم. وهو مما يوجع قلب كل ناظر ومحب للوطن. وهذا الخراب وان يكن في ظاهر أمره خصوصياً، فهو في الحقيقة عمومياً يلحق جميع أبناء الوطن، لأن كل خسارة حصلت أو تحصل فهي خارجة من كيس الوطن وكل نفس فقدت أو تفقد ف خسارتها لاحقة بالجميع.

التدين الصحيح مغاير للتعصب المذهبي. التدين الصحيح يدفع إلى التسامح والإخاء والمحبة. أما التعصب المذهبي فإنه يدفع إلى الكراهية والحقد والانغلاق على الذات، التعصب المذهبي دليل على قلة الديانة أو عدمها. إذ لو كانت الديانة حية في قلوب المؤمنين لما احتاجوا إلى التعصب لنصرة معتقدهم ولما ارتكبوا ما ارتكبوا من الفظائع والمنكرات. التعصب سبب تفرقه وانشقاق، سبب تناحر وخراب. فهو الذي هيا الجو ومهد السبيل للفتنة. (18)

من الطبيعي أن يركز رواد النهضة على العامل الخارجي كمحرك أساسي في تنمية الطائفية وفرض التجزئة في بلاد الشام وذلك بسبب التأثير القوي للعامل الخارجي في الواقع السياسي والاجتماعي لبلاد الشام، فصرخة أمين الريحاني تعبر عن دور العامل الخارجي في زراعة الفتنة:

"أن الطائفية التي أعمت قلوب المتعلقين بالغرب الذي زرعها في نفوسهم لم يدركوا بعد، أن هذا الغرب عمل ما عمل ويعمل في سبيل مصالحه لا في سبيل مصالح الطوائف". (19)

تفاعلت الحركة الوطنية السورية بعد الثورة السورية الكبرى عام 1925 مع الأسس الفكرية التي اعتمدها مفكرو النهضة جميعاً وعلى بيان الثورة السورية الكبرى في تأسيس أحزابهم ومنتدياتهم الفكرية والمدنية والثقافية فذمت وابتعدت عن الطائفية، فكانت إيدولوجيات هذه الأحزاب جميعها متناغمة مع أفكار رواد النهضة وبيان الثورة رغم اختلاف مشارب تلك القوى السياسية والمدنية والثقافية.

رغم موقف الحركة الوطنية بكافة أحزابها ومؤسساتها المدنية من الطائفية لم تستطع تناول مسألة الطائفية وفق نسق حضاري يحترم خصوصياتها ويشركها على قدم المساواة في اجترار دورها في المشروع الوطني، فلم تستطع أن تتجاوز عصبية الواقع والدوائر التقليدية المتوفرة في المجتمع، فكانت تلك الأحزاب عبارة عن يافطة حديثة لواقع تقليدي، عصبوي أثر في مسارها وفاعليتها على المجتمع السوري مستقبلاً.

في الجانب السياسي اختلفت الحركة الوطنية من حيث مرجعياتها لفهم الواقع وبناء المجتمع وعليه بنت منظومتها الفكرية لتطبيقها على الواقع فظهرت ثلاث مرجعيات سياسية كنتيجة لتفاعل الأفراد مع أفكار رواد النهضة والحركة الوطنية لتؤسس أحزاباً ومؤسسات تابعة لها.

الأولى: اعتمدت على المرجعية الإسلامية في بناء تكوينها فنشأ حزب الإخوان المسلمين بعد انتقال دعوتهم من مصر إلى سورية اعتباراً من عام 1936، "وأخذت طابع الدعوة الخيرية والثقافية فأنشأت في عدة محافظات مدارس المعهد الإسلامي ولجاناً متنوعة وداراً للطباعة وصحيفة المنار في دمشق، وشركة للنسيج في حلب" (20)، ثم بدأت تجتمع في مؤتمرات قطرية عامة ودورية، تعارفت في ما بينها على التسمي بشباب محمد. وفي مؤتمرها الخامس، المنعقد عام 1944 بحلب توحدت تحت اسم (الإخوان المسلمين في سورية ولبنان) وانتخب مصطفى السباعي مراقباً عاماً لها. (21)

في الفترة الأولى من الاستقلال، تميزت حركة إخوان سوريا وإخوان مصر من حيث الرؤى والمنظورات، "فلم يطالبوا بتطبيق الشريعة، بل بحكم صالح يزيل مساوئ الاستعمار" (22)

الثانية: اعتمدت على مرجعيات قومية لبعض من رواد النهضة العربية وأفكارهم أي ما سمي بالاتجاه القومي العربي فنشأ عن ذلك عدة أحزاب سياسية تستمد أفكارها من نفس المصدر وكان حزب البعث العربي الاشتراكي الأكثر تعبيراً عن هذا الاتجاه إذ تكون هذا الحزب نتيجة اندماج حركة الاحياء العربي بزعامة علق والبيطار مع حزب البعث بزعامة حزب البعث بزعامة الأرسوزي، عقد مؤتمره التأسيسي في دمشق 1947 ، حيث وضع دستوره الذي كان أشبه بالبيان القومي. (23)

رسم هذا التيار علاقته بالدين من خلال ربطه للإسلام بالعروبة كمرجعية حضارية للشعوب العربية واعتبر الإسلام ديناً قومياً عربياً إضافة إلى أنه تراث ثقافي قومي توارثه العرب بالتساوي، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، فعبّر مشيل علق عن ذلك بقوله: فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذا كعلاقة أي دين بأي قومية. وسوف يعرف المسيحيون العرب. عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل. إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن ينتشعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أئمن شيء في عربيتهم. (24)

الثالثة: اعتمدت على مرجعية ماركسية أممية أي ما سمي بالأحزاب الشيوعية. استفادت هذه الأحزاب من الانتصار الكبير للثورة البلشفية عام 1917 وانتصار الاتحاد السوفيتي على النازية، وركز برنامجها الاجتماعي الاقتصادي على ان تكون ركناً من أركان الحركة الوطنية، إلا أن هذا التيار اعتبر أن الطائفية ظاهرة سطحية وإن كانت عامة، وأن المشكلات الحقيقية للمجتمع السوري هي مشكلات اقتصادية بالدرجة الأولى تقوم على الصراع الطبقي، واجتماعية بالدرجة الثانية.

من "التوجيه من الداخل" إلى التوجيه من الآخرين على المستوى الطائفي

إن الظالم لو رأى على جانب المظلوم سيفاً لما أقدم على ظلمه

عبد الرحمن الكواكبي

إن الهدف من اختيار هذا العنوان توضيح حركة الانتقال على المستوى الطائفي من النموذج السابق للحركة الوطنية السورية وفهم المسألة الطائفية، وسير نموذج آخر حدث بعد عام 1963 واستلام حزب البعث العربي الاشتراكي للحكم في سورية وهو نموذج أسميته التوجيه من الداخل إلى نموذج آخر تقاطع مع الأول لكنه جاء من الخارج لذلك دعوته الموجه خارجياً أو الذي يعتمد في توجهه على المؤثرات والاتجاهات الخارجية. سوف أتحرى العلاقة بين هذين النموذجين على الواقع المجتمعي السوري.

في 8 اذار 1963 أطاح انقلاب بقيادة ائتلاف من الضباط البعثيين والناصرين والوحدويين المستقلين بعد نظام الإنفصال، وكان أغلب هؤلاء الضباط قد عايشوا ثقافة الريف بسلبياتها وإيجابياتها، فقد كان جلهم ينحدر من الريف الفقير في سورية الذي يغلب عليه الانتماء إلى الأقليات وخاصة العلويين والدروز والحوارنة والإسماعيليين والديرية، لكن الانقلاب لم يكن مخططاً له أن يتم على هذا الأساس الأقلوي بل خضع لتركيبية الجيش وعزوف أبناء المدن عن الانخراط به، إضافة إلى استبعاد الخصوم من الضباط السابقين والتعويض عنهم بضباط وصف ضباط يدعمون الثورة.

قام هذا الاصطفاف الجديد في بنية الحكم بتدعيم الأواصر العائلية والعشائرية والمناطقية والطائفية لتقوية مراكز ضباط الانقلاب. وأخذ هذا الاصطفاف يتعاظم بعد انقلاب 1970 لحافظ الأسد فبدأ الانطلاق من التوجيه غير الواعي للنزعة الطائفية القائم على تطلعات وطاقت اختيار محدودة لهؤلاء الضباط إلى التوجيه الواعي في رسم سياسات مبطنة اعتمدها حافظ الأسد وفرضها على الواقع السوري فبدأ بتصفية معارضيهِ من كافة الطوائف والمناطق وزجهم في السجون حتى المنحدرين من طائفته ليتسيد على الحكم بشكل مطلق لتبدأ مرحلة جديدة تعتبر من أكثر المراحل السورية استبداداً وفساداً وتقسيماً للنفوذ حسب الولاء له لكنه اعتمد على سياسة خاصة في صناعة حاضنة اجتماعية له، فعلى مستوى طائفته تقرب كثيراً من الضباط المنحدرين من طائفته وقربهم إلى موقع القرار وخاصة في مؤسستي الجيش والأمن واستخدم حزب البعث العربي الاشتراكي مطية لتنفيذ سياسته، واعتمد أيضاً على سياسة التأقلم مع الظروف الدولية وتغييراتها، كما أنه عزز موقعه من خلال سياسة اعتمدت على ثلاث مبادئ:

- 1- الحرية الاجتماعية: عاش المجتمع السوري في مرحلة حكمه بحرية اجتماعية كبيرة فقد ترك المجتمع السوري لتفاعلاته وتطوره الاجتماعي دون تدخل شريطة أن لا يؤثر ذلك على حكمه أو تأخذ هذه الحرية منحى سياسي (تمت إزالة الإشارة إلى الدين في الهوية وجواز السفر لأول مرة 1972 ومازال).
2- الموقف من القضية الوطنية: مارس النظام سياسة تملك كثيراً من الادعاء في دفاعه عن القضايا الوطنية فعارض الاتفاقات المبرمة مع الكيان الصهيوني ولم يتنازل عن القضية الفلسطينية ودعم مواقف المقاومة الوطنية في لبنان وفلسطين لأن هذا الموقف يشكل البقرة الحلوب لتغذية حكمه وزرع الوهم بالشعب السوري، إلا أن هذه السياسة أعطته دعماً كبيراً في بناء حاضنته الاجتماعية.

3- توزيع جزء من الثروة على المجال الاقتصادي قام النظام بدعم كثير من المواد الأساسية ونفذ سياسة التعليم المجاني والصحة المجانية والتوظيف المفتوح.

لم يكن النظام طائفيًا بقدر ما كان يستفيد من الطائفة التي ينتمي إليها أو أي طائفة أخرى أو منطقة أو عشيرة لتدعيم حكمه، وهذا ما وقعت به المعارضة الإسلامية "الإخوان المسلمين" بشكل خاطئ عندما روجت أن النظام طائفي وقايلته على هذا الأساس ما بين عام 1980 إلى 1982 فخسرت وخسرت معها المعارضة الوطنية كلها من خلال انتهاك السلطة لحقوق الإنسان وزج أعضاء كافة القوى السياسية والنقابية المعارضة في السجون.

لقد عمل الأسد الأب منذ بداية وصوله إلى السلطة على تحويل الطائفة العلوية إلى مطية وأداة وضيفة طيعة في سبيل ترسيخ نظام حكمه، وتأسيس استبداده، والمحافظة على مجده الفردي، الذي بناه على أشلاء أبناء الطائفة العلوية، إذ حولهم إلى طبقة من الجند والحراس لنظامه، ففتح لهم ابواب التطوع في الجيش على مصراعيه، وشجعهم وأغراهم على ذلك، ثم عمل على تنظيمهم في وحدات عسكرية مفرقة في الولاء لنظامه، غايتها المحافظة على نظامه وحراسة أمجاده الشخصية. ومن ثم وظف أدواته السيكلوجية والإيديولوجية لغسل أدمغتهم وتصفية عقولهم وتطبيعهم على الرضوخ لإرادته والإذعان لمشيئته، فلقنهم دروساً في فن التبعية والاستكانة، فأصبحوا مجرد أدوات عسكرية طيعة لنظامه يوظفهم في خدمة مجده الزائف وأطماعه الجنونية.

ومنذ البداية عمل الأسد على تدمير كل مظاهر الحياة الفكرية والثقافية لأبناء الطائفة إذ قام بتدمير البنى والتكوينات الفكرية في الطائفة، وعمل على تفريغ الطائفة من مختلف قدراتها وكفاءاتها الفكرية والسياسية، فأمعن في أبنائها فتكا وسجنا وتعذيباً وتدميراً، ومن ثم قام بقطع الرؤوس الفكرية والدينية التقليدية والمعاصرة، وأبقى على ذاته ومن يلف لفه حاكماً مطلقاً ينوب عن الطائفة في كل قضية وفي كل أمر. وبعبارة أخرى جعل من الطائفة جثة هامة فكرياً وثقافياً وأخلاقياً بلا رأس بعد أن قام بالقضاء على مفكراتها ومتفقيها وأصحاب الرأي فيها، فأحرق الأخضر، وألهب اليابس، حتى لم يبق في ربوع الطائفة ضرع ولا غرس ولا قيمة ولا زرع، وكس أبناء الطائفة كجند أذلاء في دمشق، ثم رماهم في أكوام العشوائيات الهوامية المترامية الأطراف بلا كرامة أو قيمة إنسانية بعد أن قطع دابر اتصالهم بأريافهم وقراهم التي عرفوا فيها بعضاً من كرامة الوجود وعزّ الحياة. (25)

إنني أستطيع أن اسمي هذا النموذج، بالنموذج الموجه داخلياً، حيث أن مصدر التوجيه كان داخلياً، وهذا لا يعني استقلاله الكامل عن المحيط الخارجي إذ أنه في أعوام الأزمة التي قامت بين السلطة والإخوان 1980 إلى عام 1982 كان للمحيط الخارجي دور في تفعيل الأزمة ما بين طرفي النزاع أصحاب التوجيه الداخلي للنزعة الطائفية.

إن التوجيه من الآخرين للنزعة الطائفية أخذ منحنيين لم يكن للشعب السوري دور في الأول منهما بشكل مباشر إذ حدث خارج حدوده. فتأثر به وتفاعل معه دون أن يكون طرفاً فيه، فخرن رواسب نفسية واجتماعية سلبية أثرت على مزاجه الطائفي.

لعبت الحرب الأهلية الطائفية في لبنان عام 1976 والاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 ومن ثم الحرب الأهلية الطائفية فيه، دوراً في عامل التوجيه من الآخرين للنزعة الطائفية داخل المجتمع السوري فأدخلت الرعب لدى الأوساط الشعبية من انتشار تلك الظاهرة إلى داخل سورية وبدأت تظهر اصطفايات طائفية لم ترق إلى تحول الظاهرة من شكلها الاجتماعي إلى شكلها السياسي.

إن العلاقات الوثيقة بين أفراد المجتمع السوري بمختلف طوائفه أضعفت تأثير النزعة الطائفية لدى الأفراد والمجتمع من الداخل رغم قيام النظام بالتوجيه الداخلي، ودور الحربيين الأهلبيين في لبنان والعراق بالتوجيه من الخارج، فبقيت الظاهرة محصورة ضمن نطاقها الاجتماعي ولم تتحول إلى شكل سياسي لذلك لم يتم التأسيس سياسياً على تلك الظاهرة فبقيت في نطاقها الاجتماعي رغم إحداثها هزة نفسية لأفراد المجتمع.

أما المنحى الثاني فقد حدث مع بداية الثورة السورية وهو التوجيه من الآخرين بطرق شتى أهمها الاعلامي والعسكري ودخول مفاهيم دينية جديدة على الواقع السوري ليتلاقى مع التوجيه من الداخل فينتقل إلى مكونات المجتمع السوري ويتفاعل مع الإثنين ليصبح خطاباً مستساغاً لدى كافة الأطراف السياسية والمدنية.

لا يستطيع أحد اليوم أن ينكر بأن الخطاب الطائفي يتصدر الحوار السياسي في سورية اليوم وهو نوع من الخطاب المسموم الذي يقض مضاجع السوريين جميعاً ويهدد وحدتهم ودولتهم وعيشهم المشترك. وقد أصبح هذا الخطاب مع الأسف الشديد قدراً يفرض نفسه على رجال السياسة والفكر بالقوة. ولا يستطيع أحد اليوم أن ينفلت من مغبة استخدام هذا الخطاب الذي لطالما تمنى السوريون الأحرار أن يلغى من أجدية حياتهم مرة واحدة دفعة واحدة إلى الأبد.

ومن المحزن اليوم أن يعود هذا الخطاب بقوة بعد أن قرر المجتمع السوري دفن هذا الخطاب وتدمير كل مبررات وجوده في مرحلة ما قبل الحركة التصحيحية القائلة التي قادها حافظ الأسد حيث بدأت سموم الطائفية تفتك بالدماء الطاهرة للشعب السوري، وبدأت رياحها العاصفة تهب لتهدد حياة السوريين واستقرارهم وأمنهم وتندثر بالقضاء على وحدتهم الوطنية وتفكيك دولتهم العتية. (26)

ديناميكية الجماعة السورية والتغير الاجتماعي على المستوى الطائفي

إن أي عمل هو نتيجة مباشرة للدوافع وفي ظل ذلك تتوصل الجماعة إلى دوافع ترتبها لها أو تريد من خلالها تحقيق مصالحها من خلال هذه الدوافع، لتأخذ قراراً وتبدأ بتنفيذه بشكل تراكمي ليشمل الجماعة كلها، فاتخاذ القرار هو واحد من تلك الانتقالات، كما أن التغير من موقف ما إلى موقف آخر بديل لا يعني بالضرورة أن هذا الموقف هو البديل صحيح أو أنه يحقق مصالح الجماعة، فمنذ بداية الثورة السورية في منتصف آذار وبفعل همجية النظام واستخدامها العنف بكافة أشكاله وتوزعه على أغلب المناطق السورية انزاح جزء من المجتمع

الأهلي السوري من مشروع ثوري تصدرت أهدافه الحرية والكرامة إلى بداية مشروع آخر مرتين لردات الفعل بضغط التوجيه الداخلي للسلطة والتوجيه الخارجي من أطراف عدة وظهر خطان مختلفان في المشروع الثوري من آليات عملها وأدائها، خط أول مثلته محافظة درعا والآخر مثلته محافظة حمص، فمحافظة درعا بعيدة جغرافياً عن التماس مع الطائفة العلوية التي أتهمت بأنها الحاضنة الإجتماعية للنظام، لذلك كانت وطأة النزعة الطائفية لهذا الخط ضعيفة، أما خط حمص الذي هو على تماس مباشر مع الطائفة العلوية فقد كانت النزعة الطائفية لديه قوية كما أنه أصبح يرى نفسه نقيضاً لهذه الطائفة مما كان له أثر سلبي كبير على مجريات عمله الثوري.

ساد وبرز وسيطر خط حمص وتم تعميمه على كثير من المناطق مما زاد في النزعة الطائفية لدى كافة الأطراف الدينية في سورية فخرج المسكوت عنه في بداية الثورة إلى العلن وبدأ يتصدر الحوارات السياسية والكتابات الصحفية ونجد اليوم تركيزاً على دور الطائفة العلوية الغامض في دورة الثورة ، وفي حركة المسار السياسي للحياة السياسية في سوريا؛ وأخذت تنبثق تساؤلات مروعة حول دورها في الحياة السياسية اليوم وموقفها من الثورة. والأسئلة التي تدور حول الطائفة العلوية كثيرة اليوم ومنها: لماذا لم تلتحق الطائفة العلوية بالثورة؟ وما موقف الطائفة كطائفة مما يجري من أحداث جسام في المنطقة؟ وهل ستبقى الطائفة العلوية في مربع السكون مما يجري من أحداث جسام؟ هل ستشارك في الانتفاضة الثورية؟ من يمثل هذه الطائفة؟ هل يقف أبناء الطائفة في حقيقة الأمر في موقع مساندة النظام؟ هل يساند أبناء الطائفة النظام طوعاً أم كرهاً؟ ما موقع الطائفة من الوضع السياسي والاقتصادي في البلاد؟ هل تستأثر الطائفة العلوية بامتيازات سياسية ليست متاحة لأبناء الطوائف الأخرى؟ ما هي مكتسبات الطائفة العلوية من مسيرة الاستبداد السياسي لنظام الأسد خلال أربعين عاماً من الحكم الفردي المطلق؟ وهل تتحمل الطائفة وزر النظام وجرائم التسلط والاستبداد في سوريا؟.

وما يؤسف له أن الخطاب السياسي الذي يتناول هذه الأسئلة غالباً ما يقدم إجابات شعبية بنزعات ذاتية مفرطة في تشاؤمها مبالغة في اتهامها للطائفة، حيث يأخذ هذا الخطاب مكانه من حيث لا يدري أصحابه ومنتجوه ليحتل مكانة مركزية في إنتاج الخطاب الطائفي نفسه والترويج له بما يعزز النزعات الطائفية عبر التخويف والتهويل وتقديم التصورات الخاطئة. (27)

إن أخطر غلطة وأثمن هدية يمكن للتوار أن يقدموها للنظام هي تحويل الثورة إلى نزاع طائفي، فالنظام منذ الأيام الأولى للثورة حاول جاهداً أن يثيرها حرباً طائفية بين السنة والعلويين. لأن الحرب الطائفية ستجعل الطائفة العلوية لا بديل لديها عن الاستماتة في الدفاع عن النظام إذ يكون وقتها الدفاع عن النظام دفاعاً عن الطائفة ذاتها، بينما الآن ما يزال من الممكن أن تتقلب الطائفة كلها أوبعضها على النظام وتنتبرأ منه، هذا إن لم تشارك في الثورة مشاركة فعلية. النظام يخشى أن تتخلى الطائفة العلوية عنه ويبدل كل وسعه لربط مصيرها بمصيره، وإن أي توجيه للأمر في سورية باتجاه طائفي يخدم النظام لأبعد الحدود. (28)

إن القيم الدافعة الملهمة والنقيضة للاستبداد والفساد هي ممكن كل تغير اجتماعي، فهذا الفهم أساسي لمعرفة ضرورة استمرار الثورة حتى تتحقق أهدافها الكلية، التي لن تتحقق بالرغبات والتمنيات أو من ردات الفعل الغريزية للمجتمع الأهلي وإنما تحتاج إلى تمثين ودعم وتوسيع قاعدة منظومة قيم الثورة في الحرية والكرامة ونبذ الطائفية لتغيير ثقافة المجتمع نحو نموذج ثوري إنساني يستلهم كافة القيم الإنسانية وتكون على تضاد مع النظام وقيمه وممارساته.

أسباب ظهور تحول المخيال الجمعي السوري من الطائفية الاجتماعية إلى الطائفية السياسية

على مدى قرن ونصف من الزمن قام مفكرو النهضة ورجال الثورات السورية المتعاقبة أثناء الاحتلال العثماني ثم الفرنسي والحركة الوطنية السورية بصياغة المخيال الجمعي للشعب السوري. هذا الخيال يضم مجمل الحراك الإبداعي والمعرفي للشعب السوري ونشاطه المادي والرمزي والثقافة الشعبية، والتجارب والمكتسبات الحياتية المعبرة عن الخصوصية والتميز فيما يخص النزعة الطائفية، ووضعوه في نصابه كمحدد إجتماعي لا يتقاطع مع السياسي إلا أنه مع انطلاق الثورة السورية، استخدم النظام العامل الطائفي كأحد أدواته الدفاعية والقمعية، مما أدى إلى إعادة إنتاج سلبية الوعي الطوائف لذاتها ولوعياها بالآخر، وذلك من خلال توجيه داخلي مدروس ومنهج استخدمت فيه كافة الوسائل غير المشروعة، أمنية كانت أو اقتصادية أو إعلامية وتمت ممارسة حملة تضليل للوعي الشعبي مما أدى لتغول النزعة الطائفية في المجتمع السوري. في الطرف المواجه استخدمت المعارضة المسلحة نفس أدوات النظام مستفيدة من تمكنها من الوصول للقنوات الأخبارية الكبرى في الإقليم وحول العالم والانفجار الهائل في استخدام وسائل الاعلام الجديد والاعلام الإجتماعي.

تم الأمر عبر وسائل كثيرة، من كذب وتضليل وإجرام وغير ذلك مما توافر لدى الطرفين لتدعيم سلطتهما لمآرب خاصة تحقق أهدافهما. ونتيجة لهذه الحملة المنظمة والممنهجة، التي أخذت بعقل المواطن السوري وفؤاده كل مأخذ، وحاصرته من كل اتجاه، انساق الأخير تدريجياً لهذه الحملة، تاركا مخياله الجمعي الأصيل، غافلاً عن نوعية التغيير الفعلي الذي ثار من أجله نحو الحرية والكرامة، التغيير الذي يحفظ له مصالحة ومستقبله. وهكذا أصبح إنساناً مزيفاً، أسير الصورة والمظاهر، باحثاً عن أقنعة تبرر لبعض منه تلاحمه مع السلطة وتبرر للبعض الآخر في الجهة المقابلة تقليد السلطة في ممارساتها وكذبها وتدليسها للحقيقة، مستلهماً طريقة أفكارها الاستعلائية بوجه أي نقد أو تصويب، وصولاً إلى قناعة عند هذا البعض الثاني بأنه يسيطر بشكل خرافي على الواقع، متوهماً أنه هو وحده من يحرك الشعب السوري وهو من يلهم الجماهير. هذا مع العلم بأن كلا الطرفين مدعوم بآلة إعلامية ضخمة تقوم بالعبث والتلاعب بالبنية الثقافية والشعبية في تشكيل الوعي لمصلحتها بما هو كائن، وبما هو هام، وما هو حق. وفوق هذا كله أصبح الحق منتوجاً يصنع في تلك الألفية ذات الأهداف الخاصة، والتي لا تمت لأهداف الشعب السوري بصلة. وهكذا قام كل من السلطة والقوى الظلامية بـ:

1- خلق الظروف لتزييف الوعي: منذ بداية الإنتفاضة السلمية للشعب السوري واجهها النظام بالقتل والإعتقال والتعذيب للحصول على ردات فعل عنفية جزئية هنا وهناك ليبرهن على أنّ الكل هو العنفي والجزء القليل فيها هو السلمي، من خلال عملية تزييف مدروسة، يظهر فيها النظام مدافعاً عن أمن المواطن والوطن أمام عصابات مسلحة همها ضرب الوحدة الوطنية وخلخلة الأمن في البلد. وقام بتزييف المعلومة التي تبني عليها رؤية الناس للحياة، لتصبح إرادتهم تابعة لمصدر هذه المعلومات الزائفة، إضافة لتقديم بعض الإصلاحات الشكلية لإعادة إنتاج سلطته، معتبراً هذه الإصلاحات إنجازات عظيمة تحقق المطالب التي نادى بها الإنتفاضة السورية، وقامت قطاعات من المعارضة بإتباع طرق شبيهة من أجل تمزيق ما تبقى من الوعي الوطني الجامع لتبرير استهدافها للجيش والمدنيين.

2- صناعة الوعي القسري: حاولت السلطة، وما زالت، تسيير الوعي ضمن أهداف تحقق استمرارها، من خلال فرض شروطها بما تمتلك من إمكانيات ضخمة في إدارة الدولة. فعملت على القيام بتخريب متعمد في كافة نواحي حياة المواطن السوري، من خلال التضيق على ظروف معيشته اليومية، بحجة الوضع الأمني، من قطع يومي لوسائل الاتصال والكهرباء وشح في المحروقات وقطع الطرق ومحاصرة المدن وغلاء الأسعار، إضافة إلى الضغط النفسي من خلال تهديد الحياة المستمر. كل هذه الأفعال من أجل إيهام المواطن السوري أن ما يحصل من تخريب وحصار على المستوى الاقتصادي هو نتيجة لهذه الثورة. إلا أن أخطر ما تقوم به السلطة في هذا الشأن هو القتل والتعذيب والخطف والمذابح وبث الفتنة الطائفية. كل ذلك من أجل تشكيل وعي قسري لدى المواطن لا يقبل المفاضلة، فإما بقاء السلطة والقبول بما تقدمه أو حرق البلد وهو الشعار الذي يرفعه أزام النظام إما الأسد أو حرق البلد.

في الطرف الآخر قامت أطراف في المعارضة المسلحة باستهداف مؤسسات الدولة والبنية التحتية ودور عبادة الطوائف والأديان الأخرى إلى جانب قيامها بأعمال القتل والخطف والتعذيب تحت شعارات تجاهر بالدعوة إلى "الذبح حسب الشريعة".

3- صناعة الوعي القهري: وهو الوعي الذي تشكل خلال نصف قرن من الاستبداد والفساد، من خلال خضوع إجباري له، مارست السلطة فيه أبشع أنواع قهر المواطن السوري، فساداً وقتلاً واعتقالاتاً وتعذيباً وتهجيراً قسرياً واستلهمت القوى الظلامية معطيات كل هذه الممارسات القهرية في إرهابها الفكري، دون تمحيص أو تحليل أو نقد على أساس أن الخضوع من طبيعة الأشياء. فقامت بعملية ضخمة تبيع من خلالها الوهم للشعب الثائر، وهم أنها قادرة على تحقيق مصالحه وعلى تسخير المجتمع الدولي لخدمته، دافعة باتجاه مطالب لا يمكن تحقيقها ضمن الوضع الجيوسياسي للدولة السورية. هذه المطالب أصبحت مأزقاً للقوى الثورية وللشعب السوري، لقمت بطريقة منهجية. وكان من أهم تلك المطالب الحظر الجوي والتدخل الدولي والمناطق والممرات الآمنة والمناطق العازلة، والتي لم يتحقق منها شيء. (29)

ينبغي هنا تذكر فارق أساسي بين اتجاه العصبية الطائفية واتجاه الحزبية، وهو إن الأولى تتمتع بنوع من الاستعلاء على التاريخ لا تتمتع به الثانية. فالطائفية موجودة في التاريخ، وتكتسب من جراء ذلك ثقلاً اجتماعياً ووظيفة سياسية. لكنها تضع نفسها فوق التقلبات والظروف والأوضاع. فهي قادرة على التكيف أكثر من الحزب السياسي، إذ أنه لا ينظر الى التاريخ من مستوى البدايات والنهايات، بل من زاوية الحركة التاريخية نفسها، من زاوية معاناة المشاكل والممارسة الفعلية للنظرية أو العقيدة.(30)

وعندما تتحول النزعة الطائفية إلى عصبية وتنتقل من الطائفية الاجتماعية إلى الطائفية السياسية تنتقل معها منظومة كاملة من القيم والأعراف والتقاليد والعادات والقرابة العشائرية والروحية والغيبية إلى المجال السياسي فيتم إحلالها محل المفاهيم القائمة عليها الدولة من مؤسسات وقانون وعقد اجتماعي، ونسف للرابطة الوطنية التي تجمع المجتمع السوري.

هناك كثير من الأسباب تدفع المجتمع السوري في مسار منحرف يتم فيه نقل تجليات المكون الطائفي الاجتماعي إلى مكون طائفي سياسي بحيث يصبح التعبير الطائفي محورا أساسيا للعمل السياسي السلمي والعنفي، من أهمها:

- 1- الخطاب التضليلي للسلطة من خلال ترويح خطاب ذي نزعة طائفية، وهو خطاب اعتمد على الأكاذيب وتزوير الحقائق وزرع الخوف في المجتمع ومحاولة اقناع الجمهور بأن الصراع ليس من أجل القضاء على الاستبداد والفساد وتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وانما هو صراع طائفي بين المكونات الطائفية في المجتمع السوري.
- 2- الخطاب التضليلي لبعض أطراف المعارضة الإسلامية إذ يطرحون شعار الدول الإسلامية أو الحاكمة الإلهية والتماهي مع السلف الصالح، إضافة إلى الجوع للسلطة وممارسة كل أنواع الزيف والتضليل عبر مسار الثورة من خلال المدلولات الدينية وليس الوطنية والسياسية لتسمية أيام الجمع والكتائب المسلحة والشعارات التي روجت لها ضمن المجتمع الأهلي الحامل للثورة وقد تم رفعها كشعارات للثورة متناسية أن الثورة انطلقت تحت شعار الحرية والكرامة والشعب السوري واحد. إضافة لممارسة بعض أقطاب المعارضة خطاباً طائفيّاً سياسياً وتقديم تنازلات مجانية فيما يخص القضية الوطنية بما فيها احتلال الجولان من قبل الكيان الصهيوني عبر وسائل الإعلام والذي كان له الأثر البالغ على المجتمع السوري.
- 3- تعميم العنف والعنف المضاد من قبل السلطة ضد المجتمع الأهلي وردود الفعل عليهما بعنف شبيه من قبل بعض المجموعات المسلحة والذي لا يمتلك نفس القوة إلا أنه يمتلك النزعة التدميرية والافتراضية نفسها، وذلك وصولاً إلى تبرير أشكال الإعتداء وتمجيد أصحابها، وامتهان حرية الفرد باسم الاستقرار والأمن والأمان من قبل السلطة أو باسم الثورة ورفعة الجماعة وتماسكها من قبل بعض الجماعات المسلحة، واستخدام مبدأ الغاية تبرر الوسيلة رغم أن الشريعة الإسلامية ترفض القول بهذا المبدأ وتحرم استباحه الدماء أو الأعراض أو الأموال لأي إنسان.

4- ضعف دور المجتمع المدني ومؤسساته والقوى السياسية والحركات المدنية السلمية وفقدان دورها في تجبير الواقع لصالح بناء الدولة الديمقراطية الحديثة، وعدم قدرتها على ترجمة "اللاعنف" إلى برامج وأفكار وممارسات قابلة للتنفيذ بسبب حالة الإستبداد السياسي على مدى أربعين عاماً إضافة لتعميم العنف بعد تسعة أشهر من عمر الثورة.

5- الخلط بين الطائفة والنظام وبين الطائفة والدولة، وهذا من شأنه أن يكون أكثر كارثية وخاصة عندما ينحدر وعي النخبة والصفوة إلى مستوى الوعي العام وهذا ما نلاحظه اليوم في الخطاب الثقافي الطائفي بصورة واضحة. حيث لا يجري الفصل الموضوعي بين النظام والطائفة والدولة. فالطائفة مكون من مكونات الدولة بالضرورة ولكنها ليست من مكونات النظام السياسي القائم. (31)

6- عملت بعض القوى الإقليمية على توليد الثقافة الطائفية وتعزيزها إعلامياً ودعمها عبر مختلف القنوات والدوائر وهي تريد بذلك إسقاط النظام والهدف طبعاً إسقاط المحور السوري الإيراني حزب الله لاعتبارات إقليمية وسياسية. لقد تعتمد الإعلام في هذه الدول إثارة النعرة الطائفية دائماً عبر نشر وقائع وأحداث قتل وجرائم وتعذيب تحمل بصمة طائفية سواء بالصوت أو بالصورة والرمز مثل اظهار اللهجة الساحلية العلوية في أغلب حوادث القتل والتعذيب والذي تم التثبت من أن بعضها كان مفتعلاً.

7- عملت بعض الدول الكبرى على تأجيج هذه الثقافة الطائفية وفي هذه السياسات عودة إلى السياسات الاستعمارية في الستينات حيث تلقت الأقليات والطوائف اللبنانية دعماً خارجياً من بعض الدول بصورة علنية وصريحة. ومن الواضح أن هذه السياسة سياسة استعمارية تريد هذه الدول من خلالها فرض الهيمنة وتمزيق الدول التي تمر بحالات توتر طائفي. (32)

يتناول الجزء التالي والأخير من هذه الدراسة موضوع الطائفية من زاوية ميدانية وإحصائية وذلك لتسليط الضوء بشكل عملي على دور الطائفية في الأزمة السورية وتأثيرها على الحراك الثوري السوري. وكما بينت الدراسة بالبحث والتحليل، فإن الاستبيان يبين بالأمثلة والأرقام أن مواجهة صعود الإسلام السياسي المتطرف على أكتاف التوترات الأهلية هو التحدي الأكبر أمام جميع دول الإقليم. إن مفتاح السيطرة على الأزمة السورية وإيقاف إراقة الدماء ومسؤولية عربية ودولية تتمثل في إنهاء الحرب الخفية التي تستخدم الصراع الطائفي للسيطرة على هذه المنطقة الحيوية في العالم العربي. إن إيقاف هذه الحرب هو المخرج الوحيد للأزمة السورية وذلك قبل أن تتحول هذه المنطقة إلى فضاء يدخله الراغبون من كافة دول الإقليم باتباع دورات جهادية والحصول على فتاوى الجهاد والتكفير ليعودوا بعدها إلى بلدانهم ليطبقوا ماتعلموه في طريقهم إلى جنة وهمية، الأمر الذي تلوح بوادره في الأفق العربي منذ الآن.

الطائفية والثورة : قراءة ميدانية .

ضمن عملي الحقوقي قمت بجولة لتقصي الحقائق لدراسة أوضاع النازحين واللاجئين السوريين ما بين 2012/8/10 و 2012/9/30 نتج عن هذه الجولة إصدار الجزء الأول من تقرير بعنوان "النازحون في سورية

واللاجئون السوريون في " لبنان، الأردن، تركيا، العراق، مصر " رافقني في هذه الجولة فريق عمل مؤلف من 27 شخصاً داخل وخارج سورية أعضاء من مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية وأعضاء من حركة شباب 17 نيسان للتغير الديمقراطي في سورية إضافة لمجموعة متطوعين آخرين. وساهمت معي في تحليل وتحرير الدراسة والاستبيان زميلة أكاديمية من أعضاء مركز دمشق

ناقش التقرير أوضاع النازحين واللاجئين على المستوى الإغاثي والصحي التعليمي والقانوني وتم توزيع استبيانين اشتمل الأول على دراسة أوضاع اللاجئين على المستوى الصحي والاغاثي والتعليمي واشتمل الثاني على مؤشر التغيرات الاجتماعية والسياسية والطائفية بتأثير الثورة السورية.

ملاحظات أولية:

- أشخاص العينة للإستبيان الأول مختلفون عن أشخاص العينة في الإستبيان الثاني.
- أشخاص فريق العمل للإستبيان الأول مختلفون عن أشخاص فريق العمل في الإستبيان الثاني.
- كافة أسئلة الإستبيان مغلقة.
- في هذه الدراسة سوف نتطرق إلى مؤشر التغيرات الطائفية للإستبيان الثاني.
- عدد أفراد العينة على مستوى النازحين 813 شخصاً واللاجئين 749 شخصاً وقد استوفت شروط الإستبيان ليصبح مجموع العينة 1562 شخصاً.
- كافة المشاركين في العينة تجاوزوا 22 عاماً.
- تم تنفيذ الإستبيان في أغلب المناطق السورية التي تحوي النازحين، وأغلب مناطق اللجوء في كل من لبنان والأردن وتركيا.
- كان عدد النساء المشاركات 314 بنسبة 20.1 % وعدد الرجال 1248 بنسبة 79.9 %.

في دراستنا للعينة سنحاول التعمق في تحليل الدور الذي تلعبه النزعة الطائفية، وذلك من خلال دراسة معالمها واتجاهاتها حسب كل دولة يتواجد بها النازحون واللاجئون السوريون على حدة وذلك لتسليط ضوء كاشف على المرحلة التي يمر بها المجتمع السوري الآن، إذ لا يمكن فهم تأثير النزعة الطائفية تماماً إلا على ضوء ما يجري من تحولات في القاعدة الشعبية. ويعتبر النازحون واللاجئون المنطقة الأثر سخونة في الخطاب العالمي والعربي والمحلي عن الأحداث الجارية، كما أنها من جميع المنظورات وخاصة منظورات منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان تعتبر من أكثر الشرائح تضرراً ومعاناة في الأزمة السورية، والأكثر تعبيراً عنها ، كما تعتبر قضيتهم الآن أكثر القضايا إلحاحاً وحاجة للحل السريع.

ولكي يكون التحليل منهجياً وبعيداً عن المواقف المسبقة يحسن بنا أن نبدأ بتمييز أفراد العينة من حيث طبيعة عملهم ومؤهلاتهم العلمية وثقافتهم .

(1)

مكان الايواء	العدد	فلاحين	عامل حرفي	يحملون شهادة التاسع	مجاز جامعي	تاجر أو مستثمر
سوريا	813	278 شخصاً بنسبة 34.2 %	416 شخصاً بنسبة 51.2 %	99 شخصاً بنسبة 1.2 %	19 شخصاً بنسبة 1.23 %	1 شخص واحد بنسبة 0.1 %
لبنان	359	129 شخصاً بنسبة 35.9 %	211 شخصاً بنسبة 58.8 %	7 أشخاص بنسبة 1.9 %	11 شخصاً بنسبة 3.1 %	1 شخص واحد بنسبة 0.3 %
الأردن	280	113 شخصاً بنسبة 40.4 %	127 شخصاً بنسبة 45.4 %	21 شخصاً بنسبة 7.5 %	17 شخصاً بنسبة 6 %	2 شخصين بنسبة 0.7 %
تركيا	110	49 شخصاً بنسبة 44.5 %	54 شخصاً بنسبة 49.1 %	4 أشخاص بنسبة 3.7 %	2 شخصين بنسبة 1.8 %	1 شخص واحد بنسبة 0.9 %

تبين لدينا من خلال العمل أن هناك ما نسبته 13 % من أفراد العينة لا يستطيعون الكتابة ولا القراءة وهم ينحدرون في فئتي الفلاحين والعمال وأغلبهم من الشريحة العمرية التي تزيد عن 45 عاماً.

يبين المؤشر النسبي للإستبيان أن عدد الشريحة العمالية والحرفية هي الشريحة الأكبر عدداً بين بقية الشرائح، إذ أن كافة المناطق سجلت نسبة تفوق 45 % وهذا دليل على أن أكثر المناطق المتضررة هي مناطق أحزمة المدن والمدن على حد سواء وكذلك سكان المدن أصحاب الأصول الريفية الذين يعملون بالمدينة كعمال خدميين أو حرفيين وهم في الغالب من أكثر الشرائح فقراً ويشكلون القاعدة الشعبية للانتفاضة. ومن الواضح للمتابعين أن أكثر المناطق تسليحاً واندفاعاً نحو العمل المسلح هي في الضواحي وفي الأحياء الشعبية في المدن الكبرى حيث تقل نسبة التعليم وحيث تواجه خطط الدولة الكثير من العراقيل في محاولة تطبيق التعليم الإلزامي. وحيث تسود

هجرة النخب إلى مناطق أكثر تحراً وحيوية وأكثر قرباً من المركز الثقافي والاقتصادي. في هذه القطاعات تبدو الحرفية المهنية وجهاً آخر لبطالة مقنعة في اقتصاد متعثر، ويجد الخطاب الديني المتطرف طريقاً سالكاً حيث يسود الفقر والمشاكل الاجتماعية ويقع الشباب دون رحمة في حبال تجار الدين والحرب.

يلي ذلك نسبة الفلاحين الذين يشكلون القاعدة الشعبية الثانية للانتفاضة بنسبة تفوق 34 % وهؤلاء جلهم من ريف درعا وحمص وحلب وإدلب وحماة، أغلبهم انقطعت سبل العيش لديهم بسبب الدمار والتخريب الذي لحق بممتلكاتهم وأرضهم الزراعية بسبب العنف المستشري في تلك المناطق وخاصة من قبل السلطة.

يعطي المؤشران الأول والثاني دليلاً قاطعاً على أن ما يحصل في سورية هو في إحدى أوجهه انتفاضة شعبية أو تمرد مجتمعي ضد السلطة لتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية والسياسية.

يأتي معظم اللاجئين السوريين في الأردن من محافظة درعا مع نسبة قليلة من ريف دمشق الجنوبي وحمص وحماة، كما أن حوالي ثلاثة أرباع اللاجئين السوريين في لبنان جاؤوا من محافظة حمص أما البقية فقد أتوا من ريف دمشق بالإضافة إلى بعض الطوائف الأخرى وخاصة المسيحية، أما اللاجئين السوريين في تركيا فجلهم من محافظة ادلب وريف حلب.

(2)

هل شاركت في الانتفاضة ؟

مكان الايواء	العدد	نعم	لا	امتناع
سوريا	813	371 شخصاً بنسبة 45.6 %	442 شخصاً بنسبة 54.4 %	
لبنان	359	215 شخصاً بنسبة 59.9 %	144 شخصاً بنسبة 40.1 %	
الأردن	280	219 شخصاً بنسبة 78.2 %	61 شخصاً بنسبة 21.8 %	
تركيا	110	76 شخصاً بنسبة 69.1 %	34 شخصاً بنسبة 30.9 %	

شارك نحو 63.2 % من مجموع العينة في الانتفاضة بشكل ما وتجلّى ذلك بأكثر من شكل. وتعتبر نسبة اللاجئين السوريين في الأردن بالعينة من أكثر المشاركين في الإنتفاضة، إذ أن نسبة المشاركين تصل إلى 78.2 % وهذا يرجع إلى أسباب عدة منها أن أغلب المتواجدين في الأردن من اللاجئين السوريين هم من محافظة درعا، وهي المحافظة التي بدأت فيها الانتفاضة، وهي تشكل تركيبة اجتماعية شبه متجانسة تضامنت سوية في الانتفاضة ضد النظام، أما أقل نسب المشاركة فتتواجد بين النازحين مما يعطي مؤشراً على أن أعمال العنف الهتمي التي ارتكبتها النظام والعنف المضاد من قبل الجماعات المسلحة وتدمير الممتلكات

الخاصة والمرافق الخدمية والبنية التحتية من مشاف ومدارس ومؤسسات أخرى قد أثرت بشكل مباشر على الشعب السوري كافة ودفعت هؤلاء إلى اللجوء والنزوح

(3)

هل شاركت بعمل مسلح؟

مكان الايواء	العدد	نعم	لا	امتناع
سوريا	813	7 أشخاص بنسبة 0.8 %	760 شخصاً بنسبة 94.5 %	38 شخصاً بنسبة 4.7 %
لبنان	359	12 شخصاً بنسبة 3.5 %	247 شخصاً بنسبة 96.5 %	
الأردن	280	3 أشخاص بنسبة 1.4 %	216 شخصاً بنسبة 98.6 %	
تركيا	110	9 أشخاص بنسبة 8.2 %	101 شخصاً بنسبة 91.8 %	

يظهر الاستبيان رقم 3 فارقاً كبيراً في عدد المشاركين بأعمال العنف وذلك بحسب مواقع لجوئهم. تتخفف النسبة لدى النازحين إلى 0.8%، علماً أن هذه النسب نتجت بعد 16 شهراً من عمر الانتفاضة التي يمكن تصنيفها إلى مرحلتين متباينتين، الأولى سلمية استمرت 7 أشهر والمرحلة الأخرى عنيفة جاءت رداً على إمعان النظام في استخدام القوة والبطش، وحالة التعبئة الكبيرة التي تقوم بها مجموعات دينية "سلفية وجهادية" على أطراف الحدود السورية من خلال انخراطها بالعمل مع اللاجئين وتدريبهم وإرسالهم من جديد إلى الدخول السوري، بالإضافة إلى قيام قسم من المعارضة السورية بتأجيج روح القتال ضد النظام مما أدى إلى قيام عدد من اللاجئين بالعودة إلى الداخل للقتال طوعاً أو رضوخاً للضغوط والابتزاز، ومن ثم عودة بعضهم مجدداً إلى مواقع اللجوء.

يظهر الاستبيان أيضاً اختلافاً بفوارق كبيرة في نسب القائمين بأعمال العنف بين اللاجئين السوريين حسب الدولة المضيفة إذ تتخفف النسبة في الأردن إلى 1.4 % لترتفع في لبنان إلى 3.5 % لتصل إلى 8.2 في تركيا وهذا يرجع إلى عدة أسباب أهمها:

- 1- طبيعة الشريحة الاجتماعية اللاجئة إذ تختلف تلك الشرائح حسب المحافظات وهذا مبيّن في الاستبيان رقم 1 ونسبة التعليم بينهم والوضع الاقتصادي لهذه الشريحة أو تلك.
- 2- درجة التحريض على العنف من الخارج وهذا يرجع إلى طبيعة الأجندة السياسية لكل دولة مضيفة وآلية تعاملها مع اللاجئين ودرجة سماحها للاجئين في العودة إلى مواقع القتال .

(4)

ما هي الدوافع التي دفعتك لذلك؟

ملاحظة: تم حساب نسبة الدوافع من نسبة المشاركين

مكان الإيواء	العدد	دافع وطني	دافع ديني	دافع انتقامي	دافع إنساني
سوريا	371	243 شخصاً بنسبة % 65.5	61 شخصاً بنسبة % 16.5	39 شخصاً بنسبة % 10.5	28 شخصاً بنسبة 7.5 %
لبنان	215	90 شخصاً بنسبة % 41.9	69 شخصاً بنسبة % 32	41 شخصاً بنسبة % 19.1	15 شخصاً بنسبة 7 %
الأردن	219	154 شخصاً بنسبة % 70.3	13 شخصاً بنسبة % 5.9	38 شخصاً بنسبة 17.4 %	14 شخصاً بنسبة 6.4 %
تركيا	76	29 شخصاً بنسبة % 38.2	32 شخصاً بنسبة % 42.1	13 شخصاً بنسبة % 17.1	2 شخصاً بنسبة 2.6 %

كشف الاستبيان الخاص بدوافع المشاركة في الانتفاضة عن تناقض كبير بين المشاركين إلى حد يبدو معه وكأننا نقف أمام شرائح لمجتمعات مختلفة لم يكن يربطها رابط وطني. ومن المحتمل أن هذا الموضوع يرجع إلى درجة التوجيه إن كان من الداخل أو من الآخرين على أفراد العينة فيما يخص النزعة الطائفية خلال مدة الانتفاضة، إضافة إلى المستوى الاقتصادي والتعليمي لأفراد العينة، فالدافع الوطني للمشاركة لدى اللاجئين في الأردن بلغت 70.3 % لتتخفّف بشكل كبير إلى 38.2 % لدى اللاجئين في تركيا، ولتتمّ التعويض عنها بشكل معكوس للدافع الديني. لكن أخطر الدوافع وأكثرها خطراً هو الدافع الانتقامي والذي شكل نسبة عالية لدى العينة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الكارثة الاجتماعية التي تواجه المجتمع السوري مستقبلاً، ويعدّ الدافع الانتقامي من أخطر الآفات الاجتماعية على المجتمع ومظهراً من مظاهر تدميره الذاتي لنفسه دون وعي أو إدراك. إن ارتفاع الدافع الانتقامي إلى ما فوق 10.5 % للنازحين ليصل إلى 17% في لبنان وتركيا يشكل ظاهراً خطيراً ربما يكون انعكاساً على الواقع السوري لعدة أجيال قادمة.

إن المجتمع السوري كسائر المجتمعات البشرية له نصيب من المشاكل الاجتماعية والأشخاص الذين يعانون من انحرافات نفسية وأخلاقية وسلوكية. وكما حدث في لبنان والعراق وكما يحدث دوماً في الحروب الأهلية

الشاملة، أدت حالة الفلتان الأمني وارتقاء قبضة المؤسسات الضابطة الممثلة للقانون وسريان حالة الذعر في أوصال المجتمع السوري بسبب الممارسات الوحشية للأطراف المتصارعة، إلى إعطاء مساحة لا محدودة في الفعل والحركة والانتشار للأفراد والجماعات الذين يقومون لا بخرق القانون فحسب بل بخرق كل الأعراف والعادات والتقاليد الاجتماعية التي نظمت حياة المجتمع السوري لقرون. ومن الخطأ التعامل مع هذه الظاهرة الطبيعية بوصفها نتيجة لتغول السلطة في العنف أو العنف المضاد من قبل الجماعات المسلحة. إن البحث في هذه الأنماط من السلوك يستوجب سبر أسبابها العميقة، وإخضاعها للتحليل النفسي والاجتماعي الذي يربطها بسياق حركة المجتمع وظروفه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية.

بالرغم من النسبة القليلة للعينة أصحاب الدوافع الإنسانية لكن هذه النسبة تشكل بارقة أمل للمستقبل وتتقاطع مع نسبة الدافع الوطني لتعطي حافزاً تفاؤلياً لنجاح الانتفاضة وبناء دولة وطنية تسودها الديمقراطية وحقوق الإنسان.

(5)

هل أنت منحاز لطائفتك أم للدولة الوطنية؟

مكان الايواء	العدد	للدولة السورية	للدين	امتناع
سوريا	813	663 شخصاً بنسبة 81.5 %	113 شخصاً بنسبة 14 %	37 شخصاً بنسبة 4.5 %
لبنان	359	237 شخصاً بنسبة 66 %	71 شخصاً بنسبة 19.7 %	51 شخصاً بنسبة 14.2 %
الأردن	280	251 شخصاً بنسبة 89.6 %	29 شخصاً بنسبة 10.4 %	
تركيا	110	45 شخصاً بنسبة 40.9 %	65 شخصاً بنسبة 59.1 %	

بالرغم من الدمار وهدر الكرامة الإنسانية للمواطن السوري مازال رابط الانتماء الوطني راسخاً وما الخلاف في النسب حول طبيعة الانتماء للمواطن إلا تعبيراً عن درجة انتهاك حقوقه من قبل الدولة الوطنية، ومن المحتمل أن يكون اللاجئين السوريون في تركيا قد خضعوا لتأثيرات وتغيرات كبيرة انعكست على طبيعة انتمائهم وقد تم ذكر أسباب بعضها سابقاً إلا أن نسبة 40.9 من العينة مازالت تؤكد على قوة الانتماء الوطني.

أن النمو المطرد للإسلام السياسي ودوره في الاستقطاب الطائفي قد أسس لزيادة العنف المضاد، كما أن انهيار جزء كبير من مؤسسات الدولة والتهديد المستمر بزيادة الضغط والتدخل الخارجيين قد أدى إلى تحجيم القوى الوطنية واليسارية والعلمانية وتأثيرها على المواطن السوري مما دفع قسماً منهم إلى التحول من الانتماء الوطني إلى الانتماء الديني.

يظهر الاستبيان وبشكل لافت نسبة الممتنعين عن الإجابة في لبنان فقد بلغت النسبة 14.2 % من العينة استكفوا عن الإجابة ومن المحتمل إن مرد هذا الأمر يعود إلى وجود نسبة 4.5% من الأقليات السورية اللاجئين في لبنان والتي لجأت إلى لبنان هرباً من العصابات المسلحة إضافة إلى التردد لدى أفراد العينة في الإجابة بسبب تأثرهم بالأوضاع اللبنانية.

(6)

هل تتامت نزعتك الطائفية أثناء الأزمة ؟

مكان الايواء	العدد	نعم	لا	امتناع
سوريا	813	209 شخصاً بنسبة 25.7 %	571 شخصاً بنسبة 70.2 %	33 شخصاً بنسبة 4.1 %
لبنان	359	104 أشخاص بنسبة 29 %	255 شخصاً بنسبة 71 %	
الأردن	280	27 شخصاً بنسبة 9.6 %	253 شخصاً بنسبة 91.4 %	
تركيا	110	35 شخصاً بنسبة 31.8 %	75 شخصاً بنسبة 68.2 %	

إن التبدل الذي طال البنية الاجتماعية السورية قد انحكم بالتحويلات الكبيرة التي طرأت منذ بداية الانتفاضة والمظاهر المختلفة التي اتخذتها حركة الانتفاضة. ومازلت هذه التحويلات تدفع بالمجتمع السوري إلى التوقع ضمن مرجعياته الطائفية، فمع تغير مسار الانتفاضة السورية من الخط السلمي الى المسلح تعرض المجتمع السوري إلى تغير كبير في النزعة الطائفية. في بداية الانتفاضة كان للفعل الأهلي تميزه الخاص، حيث ظهر بوصفه سلوكاً جماعياً منظماً له هدف واحد هو التخلص من الاستبداد والفساد مما فتح الباب لظهور الخصائص الايجابية للشخصية السورية. وما بعض الشعارات التي كانت تحض على التمسك بالوطن كقيمة تسمو على كل الانتماءات والمرجعيات والتي استمرت تطلق في كافة المظاهرات قبل توقفها بسبب عنف النظام والعنف المضاد للمجموعات المسلحة إلا تكريساً لهذا السلوك وإبراز كل القيم الحضارية والوطنية والثقافية السورية.

لقد اظهر الاستبيان تغير وجهات نظر افراد العينة حول النزعة الطائفية إذ أدى التوجيه من الداخل والتوجيه من الآخرين إضافة إلى العنف ونتائج الوحيدة إلى تصاعد هذه النزعة فصوت 25.7 % من النازحين بأن التغير أصاب وجهات نظرهم حول النزوع الطائفي. هذا لا يعني بالضرورة نمو نزعة طائفية سياسية بل التغير في النظرة إلى طائفة بعينها يتم اتهامها بأنها الحاضنة للسلطة علماً أن استبيان النازحين يحوي قسماً تجاوز الثلث ممن تضرروا من العنف ويلقون اللوم على المجموعات المسلحة التي تنتمي إلى الطائفة الأخرى، أي أن الانزياح نحو النزعة الطائفية جاء بكلاً الاتجاهين.

أما بخصوص اللاجئين في الدول المضيفة فيبين الاستبيان هوة واسعة ما بين اللاجئين السوريين المتواجدين في الأردن والمتواجدين في كل من لبنان وتركيا وتشكل الهوة ما نسبته 20% تقريباً وتتضمن أسبابها مايلي:

1- طبيعة اللاجئين في الأردن وجلهم من محافظة درعا، وهي المحافظة التي تحوي على أكبر نسبة تعليم بعد طرطوس في سورية.

2- عدم وجود تماس بين سكان تلك المحافظة مع الطائفة العلوية التي يدعي أصحاب الدعوة الطائفية أنها السبب ما وصلت اليه سوريا من خلال حمايتها للنظام. أما المتواجدين في تركيا ولبنان فجلبهم من محافظات حمص وإدلب وحماه وريف حلب وهم إما أفراد من مجتمعات مختلطة مع الطائفة العلوية أو على تماس مباشر معهم.

3- يلعب الوضع الاقتصادي لهذه المحافظات دوراً في تحول أفراد العينة نحو النزعة الطائفية إذ أن البعض يعزو مشكلة التهميش التي ارتكبتها السلطة بحق بعض المحافظات إلى حالة الفساد في السلطة والتي يقودها أفراد من الطائفة العلوية حسب ظنهم.

ومن خلال سياق الأحداث في سورية ومعطيات الاستبيان نجد أن الفتنة الطائفية قد أصبحت من أخطر وسائل الصراع الدموي الجاري بين النظام وبعض قوى المعارضة، وأنها تستخدم من قبل الطرفين ولا تقود إلا إلى هدم استقرار وأمن البلاد وإلى تشطي المجتمع السوري بأكمله.

(7)

هل تعتقد أن وسائل الإعلام تلعب دوراً في الفتن الطائفية؟

مكان الايواء	العدد	نعم	لا	امتناع
سوريا	813	731 شخصاً بنسبة 89.9 %	82 شخصاً بنسبة 10.1 %	
لبنان	359	282 شخصاً بنسبة 78.5 %	77 شخصاً بنسبة 21.5 %	
الأردن	280	234 شخصاً بنسبة 83.6 %	46 شخصاً بنسبة 16.4 %	
تركيا	110	66 شخصاً بنسبة 60 %	44 شخصاً بنسبة 40 %	

لقد تم استخدام كافة الوسائل في عملية تزييف الوعي والتلاعب بالعقول وزرع الفتن الطائفية ومن أهمها وسائل الإعلام، وذلك لتحقيق تطويع الجماهير لأهداف خاصة. إن استخدام التلاعب بالمخيل الجمعي للبشر وبيع الأوهام وزرع الفتن الطائفية، التي تحاول تبرير ما يحدث من وجهة نظر أحادية وتضفي عليه أحياناً طابعاً خلاباً وإنسانياً وثورياً، هي وسائل يضمن عبرها المضللون، في السلطة القائمة وفي مناوئها الطامعين بالوصول لكرسي السلطة، التأييد الشعبي دون أخذ المصالح الحقيقية لأغلبية للشعب السوري بعين الاعتبار.

إن أخطر ما واجهته الانتفاضة السورية على الصعيد الإعلامي هو وعاظ السلاطين من طرف السلطة أو من الطرف الآخر عبر وسائل متاحة للمواطن يومياً يستلهم منها السم الطائفي التدميري للمجتمع ولل فرد ليتحول الصراع من حقوق جوهرية للشعب السوري في الكرامة والحرية إلى صراع مذهبي تخلقه وتديره هذه الأقنية التلفزيونية، سواء منها التابعة للسلطة التي تسوّغ جرائم النظام بحق الشعب السوري، أو أقنية الوجه الآخر القبيح التي تشتغل لتكريس انقسام المجتمع وتشظيه.

إن الخطاب الديني أو الخطاب المتعصب لبعض قوى المعارضة يستقطب جماهير واسعة، فالخطاب الذي يهاجم الآخر يثير النزعة البدائية والغريزية في داخل النفوس ويعطي جماهيرية للمتحدثين به، بينما تتم محاصرة الخطاب الوطني الذي يقوم بتحليل الواقع السياسي والدولي والاقتصادي والاجتماعي لاستقراء إمكانيات إنقاذ الانتفاضة والشعب السوري ويتم اتهامه بالمرأوغة والتهاون والضعف، بل ويتهم بأنه يقدم تنازلات للنظام. وبكلمات أخرى فإن الخطاب الديني لدى بعض أطراف المعارضة يتنازل عن الواقع الموضوعي والممكنات القصوى للفعل في مقابل الحصول على التهليل الجماهيري وزيادة شعبيته.

بين الاستبيان رقم 7 والخاص بمسؤولية الإعلام عن التوجيه الداخلي أو الخارجي للنزعة الطائفية أن الأغلبية الساحقة تعتقد أن الإعلام يلعب هذا الدور وهذا مؤشر شيء إيجابي في مجمله إذ يعني أن الشعب السوري مازال قادراً على التمييز بين الغث والسمين فيما يخص مصالحه وطبيعة التوجيه الذي يتلقاه من وسائل الإعلام. إن التباين في نسب العينة يرجع إلى قوة التوجيه الخارجي أو الداخلي لدى اشخاص العينة.

إن مجمل الاستبيان يؤكد بأن كل ما حصل من عنف وتضليل للمواطن السوري لن يمزق النسيج السوري المتشابك، وأن تأثير الأحداث لن يمس الجوهر، لكن تجارب الشعوب عبر التاريخ وصولاً إلى عصر المعلومات تظهر أن للدعاية السياسية والإعلام دوراً كبيراً في هدم المخيال الجمعي للشعوب وإعادة تركيبه ومن هنا وجب التحذير من المضي في الانزلاق بهوة الهدم .

(8)

هل أنت مع رئيس قادم بغض النظر عن دينه؟

مكان الإيواء	العدد	نعم	لا	امتناع
سوريا	813	643 شخصاً بنسبة 79%	170 شخصاً بنسبة 21%	
لبنان	359	261 شخصاً بنسبة 72.7%	98 شخصاً بنسبة 27.3%	
الأردن	280	243 شخصاً بنسبة 86.8%	37 شخصاً بنسبة 13.2%	
تركيا	110	57 شخصاً بنسبة 51.8%	53 شخصاً بنسبة 48.2%	

رغم الخطاب الديني، والتحريض المستمر من قبل السلطة وبعض قوى المعارضة فإن نتائج الاستبيان تكشف بوضوح أن الشعب السوري مازال يتأثر بالخطاب السياسي أكثر من الخطاب الديني، ويرى الأمور من خلال منظار مصالحه السياسية وليس انتمائه الديني. إن نسب العينة تقدم دليلاً على ذلك إذ صوت 72.5 % من مجموع العينة بأنهم لا يتطلعون إلى الخلفية الدينية للرئيس القادم وإنما يتطلعون إلى رئيس يحقق لهم الحرية والكرامة التي من أجلها قامت الانتفاضة ومن أجلها يتحملون هذه العذابات الكبيرة.

هل انت مع حكم الشريعة الإسلامية في سورية بالمستقبل ؟

مكان الايواء	العدد	نعم	لا	امتناع
سوريا	813	156 شخصاً بنسبة 19.1 %	581 شخصاً بنسبة 72.7 %	66 شخصاً بنسبة 8.2 %
لبنان	359	15 شخصاً بنسبة 14.2 %	308 شخصاً بنسبة 85.8 %	
الأردن	280	26 شخصاً بنسبة 9.3 %	254 شخصاً بنسبة 90.7 %	
تركيا	110	47 شخصاً بنسبة 42.7 %	63 شخصاً بنسبة 57.3 %	

منذ نشوء الدولة السورية تجنب التيار الإسلامي السوري الممثل للإخوان المسلمين والمتأثرين بالعقد الاجتماعي الأول للثورة السورية الكبرى الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، ففي الفترة الأولى من الاستقلال، تميزت حركة إخوان سوريا عن إخوان مصر من حيث الرؤى والمنظورات، إذ أن الإخوان المسلمين "لم يطالبوا بتطبيق الشريعة، بل بحكم صالح يزيل مساوئ الاستعمار"، وذلك لإدراكهم المسبق أن هذا الأمر لا يمكن تطبيقه في سورية بسبب التنوع المذهبي والطائفي في سورية ولتأثرهم بمعطيات المرحلة الوطنية التي كانت تمر بها سورية في حينها. لقد كان المخيال الجمعي التاريخي لمختلف تيارات الشعب السوري بما فيه الإسلام السياسي يدرك مخاطر تطبيق الشريعة الإسلامية على واقع مثل سورية. من هنا نجد أن نتائج الاستبيان تؤكد استمرار هذا المخيال الجمعي الذي يشعر بفطرته بخطورة تطبيق كهذا فقد صوت الجميع بأكثرية ساحقة تبلغ 76.6 % من مجموع العينة ضد تطبيق الشريعة الإسلامية. رغم ذلك لا يمكن تجاهل وجود انزياح كبير لدى اللاجئين في تركيا وهذا بتأثير التوجيه الخارجي.

إن نتيجة الاستبيان تظهر بشكل واضح عدم التلائم بين أغلبية الشعب السوري الذي يريد الإنعتاق من الاستبداد من جهة والمجموعات المسلحة الجهادية والسلفية من جهة أخرى. إن هذا التيار التكفيري الجهادي تيار دخيل على الشعب السوري جاء بتوظيف خارجي لتدمير الدولة السورية وليس من أجل القضاء على الديكتاتورية وبناء نظام مدني ديمقراطي وطني. إن المشهد الحالي يصور سوريا بماضيها الذي صنعتة أعرق حضارة مدنية بشرية وحاضرها الذي صنعه مجتمع من أكثر المجتمعات حيوية وثقافة في الإقليم وهي تغرق في الدم والدمار أمام أعين المجتمع الدولي واللاعبين الكبار. هذا هو التحدي الكبير الذي يواجهه السوريون منفردين ووحيددين في معركتهم للحفاظ على ثقافتهم الإنسانية وتشكيلاتهم المدنية التي تشكلت عبر تاريخ طويل من التعددية والتعايش. إنه التاريخ الذي أحياء ورسخه التنويريون السوريون الذين ساروا في مقدمة مشروع النهضة العربي في رؤاهم عن المجتمع المدني السوري والعربي. وهو التاريخ الذي يحتاج اليوم إلى إعادة

تأسيسه وإحيائه لما يمكن أن يساهم به فيما تتطلع إليه المنطقة العربية من نهضة ثانية ما زالت حتى الآن حلمًا يراود التنويريين في العالم العربي.

- (1) (فلسفة الثورات العربية – مقارنة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد : سليمان بونعمان ص 9، صادر عن مركز انماء للبحوث والدراسات ، الطبعة الأولى 2012)
 - (2) (مستقبل الثورات: جون فوران، ص 18 ، صادر عن دار الفارابي 2007)
 - (3) (نظام الطائفية – من الدولة إلى القبيلة، برهان غليون ص30 صادر عن المركز الثقافي العربي 1990)
 - (4) (جريدة السفير اللبنانية 2007/1/10 – الكاتب اللبناني علي الصغير)
 - (5) (مقال صبري محمد خليل خيري – الطائفية .. اقتلها قبل أن تقتلك – موقع المرابط الراصد) الرابط :
- http://www.alrassedonline.com/2012/05/blog-post_736.html
- (6) (علي أسعد وطفة – في الممارسة الطائفية للنظام السياسي في سوريا – رابط على موقع مجلة مقاربات)
- <http://www.mokarabat.com/s8644.htm>
- (7) (فرحان صالح – الطائفية في لبنان البعد العربي والعمق التاريخي – ندوة الفكر الوطني في مواجهة المشكلة الطائفية، منشورت مجلة فكر اذار 1981 ص 68)
 - (8) (مسعود ضاهر – الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية 1697-1861 دار الفارابي الطبعة الرابعة 2009)
 - (9) (جب وبوب – المجتمع الإسلامي والغرب ، الجزء الثاني ، ص 114)
 - (10) (عيسى اسكندر المعلوف – مجلة الآثار سنة 1912 ج 3)
 - (11) (الحكيم، يوسف: سوريا والعهد العثماني – بيروت دار النهار 1980 ص 68)
 - (12) (سيل، باتريك: الأسد ... الصراع على الشرق الأوسط – لندن: دار الساقى 1988، ص 44)
 - (13) (حبيب عيسى ... مقال : مواطنون في سورية“ : عقد وطني” موقع مجلة مقاربات .) الرابط

<http://www.mokarabat.com/s8646.htm>

(14) (حبيب عيسى .. المصدر السابق)

(15) تقرير UNHCR المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة "الدليل العالمي للأقليات وسكان البلاد الأصليين، سوريا تشرين الأول 2011" (13)

<http://www.unhcr.org/refworld/country,,COUNTRYPROF,SYR,,4954ce5ac,0.html>

(16) (الموقع الخاص لسلطان باشا الأطرش) الرابط

<http://www.sultanalattrache.org/callToArms.php>

(17) (ياسين، بو علي : الثالوث المحرم - دراسة في الدين والجنس والصراع الطبقي - دار الكنوز الأدبية - الطبعة السادسة 1996 ص 37)

(18) (نصار، ناصيف: نحو مجتمع جديد - مقدمات أساسية في نقد المجتمع الطائفي - دار الطليعة طبعة خامسة 1995 ص 23 - 24)

(19) (ضاهر، مسعود، تاريخ لبنان الاجتماعي ، ص 43)

(20) (محمد حرب فرزت، الحياة الحزبية في سورية بين 1908-1955 ، دار الرواد، دمشق 1955 ص 146)

(21) (محمد جمال باروت، جماعة الإخوان المسلمين ما بعد المحنة، سورية، الأحزاب والجماعات والحركات الإسلامية - الطبعة الثانية، الجزء الأول، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق، 2000 ص 255)
(22) المصدر السابق، ص 257)

(23) (بو علي ياسين، حزب البعث العربي الاشتراكي، الاحزاب والحركات القومية العربية ، ص 222)

(24) (ميشيل عفلق - في سبيل البعث- الطبعة الثالثة 1963 ص 58)

(25) (علي أسعد وطفة - في الممارسة الطائفية للنظام السياسي في سوريا - مصدر سابق)

(26) (مقالة : الطائفة العلوية في قفص الاتهام !!: قراءة سوسيولوجية ... أين هي الطائفة العلوية في جغرافية الثورة السورية ؟ علي ناصر - موقع مجلة مقاربات) الرابط

<http://www.mokarabat.com/s8568.htm>

(27) المصدر السابق

(28) (مقالة: محمد ناصح عبدالله - الطائفية والثورة في سورية- موقع مجلة مقاربات) الرابط

<http://www.mokarabat.com/s8615.htm>

(29) (مقال : ناصر الغزالي - تزييف الوعي في المخيال الجمعي وبيع الأوهام للشعب السوري - موقع مجلة مقاربات) الرابط

<http://www.mokarabat.com/s8627.htm>

(30) (نصار، ناصيف: نحو مجتمع جديد - مقدمات أساسية في نقد المجتمع الطائفي -مصدر سابق ص 168)

(31) "الطائفة العلوية في قفص الاتهام"

(32) (مقال: علي أسعد وطفة- بنية الخطاب الطائفي ودينامياته السياسية في سوريا: النكوص إلى مشروع الدولة الطائفية - موقع مجلة مقاربات) الرابط

<http://www.mokarabat.com/s8645.htm>